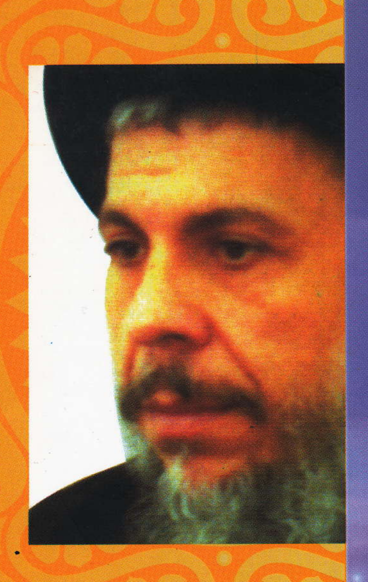
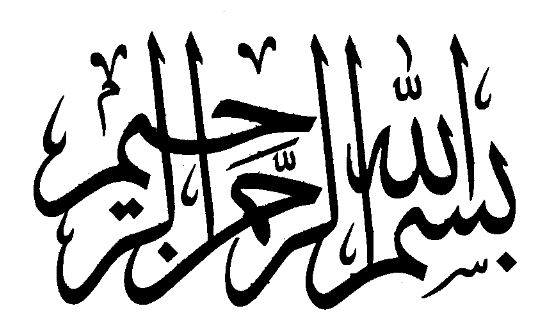


سبحات روحية
في سيرة
الإمام
الصدر
الشهيد

السيد فاضل النوري

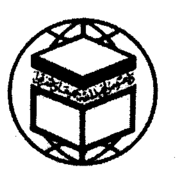

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبُحات روحية في سيرة الإمام الشهيد الصدر

السيد فاضل النوري

صدر بمناسبة مرور ٢٦ عاماً على انتصار الثورة الاسلامية المباركة في ايران

نوری، فاضل
سبحات روحيه فى سيره الامام الشهيد الصدر / فاضل النورى ـ تهران: المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلاميه، المعاونيه الثقافيه
۱۴۲۵ ق = ۲۰۰۴م = ۱۳۸۳
۱۵۲ ص.
۸۰۰۰ ریال ISBN 964 – 7994 – 45 – 1
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
عربى.
كتاب حاضر با عنوان (الشهيد الصدر، فضائله وشمائله) توسط مكتب السـيد محمـود الشـمى، ۱۳۶۲ به چاپ رسيده است.
۱. صدر، محمد باقر، ۱۹۳۱ ـ ۱۹۷۹م. Sadr, Muhammad Baqir سرگذشتنامه. الف. مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى. معاونت فرهنگى.
۹ن۴ص/DS۷۹/۶۶ ۹۵۶/۷۰۴۳۰۹۲
۱۳۸۳
كتابخانه ملى ايران ۴۵۲۸ ـ ۸۳م



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب: سبحات روحية في سيرة الإمام الشهيد الصدر
المؤلف: السيد فاضل النوري
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ـــ المعاونية الثقافية
الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ . ق ـــ ٢٠٠٤م
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
السعر: ٨٠٠ تومان
المطبعة: خاتم
ردمك: ISBN 964 – 7994 – 45 – 1
العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران ـــ ص . ب : ٦٩٩٥ ـــ ١٥٨٧٥
تلفاكس: ٨٨٢٢٥٣٢

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

استاذنا الشهيد الكبير الإمام الصدر فذ لا كالأفذاذ، وعَلَم لا كالأعلام.

إنّـه الفكر الموسوعي النيّر، والقلب العاطفي الكبير، والوعي النافذ الى أعمـاق هذه الأمة.

إنّـه الإخلاص المجسّد لكل المبادئ العظمى، والطهر بأصفى معانيه.

إنّـه السلسال الصافي يصب نعيمه في قلوب العاشقين .. وفي طليعتهم تلامذتـه ومحبوه المخلصون.

كثيرون هم الأساتذة المربون، ولكـن الـذي يتميّـز منـهم بـالنفوذ إلى أعمـق الأعماق قليل، ومن هؤلاء القليلين من ينفذ ويبقى شامخاً خالداً في هذه الأعماق، ومن هؤلاء الخالدين من يبقى يشع ويـربي دائمـاً .. والصـدر العزيـز العزيـز في الطليعة النافذة.

كان يعشق حكومة الإسلام بمعناها الأصيل، ومذ رأى الإمـام الخالـد الإمـام الخميني يصنع هذه المعجزة نسي نفسه ومرجعيته وكل ما يملك، وقدَّم الكـل فـداءً لهذه التجربة العظيمة، فكتب الى تلامذته:

(ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام).

وقد حظيت بصحبته طويلاً إلاّ انني أشعر إني لم أتم بحضرته رشفة واحدة، ولم أنهل منها شربة كاملة ... رحل ومازالت كل آمالي وأشواقي تبكيه بـدل الـدموع

دماً ... وكل مشاعري تصبّ جام غضبها على قاتليه اللئام.

وهذا الكتاب صورة من عشق تلامذته، وحروف من قلوب عاشقيه، يحاول أن يرسم صورته الملكوتية، وأنّى للقلم أن يرسم صورة الملكوت؟ وأنّى للحروف أن تعبر عن كنه الواقع الكبير، ولكن لنعتبره دعوة من قبل عالم فاضل عاشق هو الأخ العلاّمة الكبير الفاضل النوري لكل أولئك الراغبين في الدخول الى عالم الملكوت والحب، كي يقربوا ويتأملوا هذا النموذج الفذ الفذ.

محمد علي التسخيري

الإهداء

سيّدي أبا جعفر

يا نفحة اللطف في حياة المرملين

يا عبقة المجد وشميم الكبرياء.

يا دفقة النور في كثافة الديجور.

يا صيحة الحسين من علياء الإباء.

يا صرخة الرفض كمحذور القضاء.

يا من تأرّج في الأحناء الزاكيات شذى حبّه.

ومشى في العروق الطاهرات دفء هواه.

وكان في النفوس العاليات مكيناً.

يا روضة الفهم تباغمت فيها أفانين الزهور.

يا شروق الصفاء الملائكي الطهور.

سطوراً أستنزل بها واهماً للناظرين بعض ما استعلى فخشعت له قلوب العارفين من شأنك المبين، وكلمات أصوِّر بها غير مفلح ولا منجح بلا ريب شموخ حياة عُلوية كأنها كانت في عالم الغيب، وحروفاً أضمنها عاجزة كليلة معاني ذلك

الوجود الصدري المعجز، غير أنّ القليل خير من الحرمان، وإظهار اليسير خير من الكتمان، والطموح لنيل ما يدنو من المحال خير من الاقرار بالعجز والكلال.

فصفحاً إذا ما حارت السبل باليراع الباحث عن الصواب في أمرك العجاب، أو شطت بفكري العاجز نظراته القاصرة في معالمك الباهرة.

وليت الله يرضى هذا الجهد منّا في أعمالنا الصالحات، ويكتبه لنا في صفحة الحسنات، وليتك ترضاه مني لتقر عيني برضاك وأنت في علاك.

تمهيد

مضت الأعوام على فاجعة العصر، والأسى حيّ في القلوب له فيها دويّ ووجيب.

تصرّمت السنون على المأساة في كربلاء الزمان ملتحقة بركب هائل من الأعوام لسجية الألم والدم في تاريخنا الأصيل، منذ أطل علينا فجر الإسلام ذوداً عن الفجر تتعاوره عوادي الليل الأيهم، وذباً عن الحقيقة تتكثف من حولها لقتلها دياجي الزيف والباطل.

منذ عاشوراء هذا العصر واللوعة تجيش كأنها مرجل، والقلوب مع الأحزان كأنها في أحشاء بركان، والنفوس المفجوعة بالخطب الأليم في غيابات الغموم لا تبرح ولا تريم.

منذ أن نعى الناعي عملاق هذا الزمان فكراً وسعياً حتى الساعة والفاجعة لا تفتأ معنا جمرة في القلوب لا تخبو، ودمعة في العيون لا ترقأ، وحسرة في الصدور لم تعتم تتردد.

تمر علينا وعليها الأيام لا لتباعد ما بيننا، بل لتزيدها بنا التحاماً، وفي أعماقنا اضطراماً، بحجم تاريخ كامل من الفواجع، وهذا من سجايا المصائب معنا، ومن سجايانا مع المصائب.

فمن سجايانا معها إنـها قَدْرُنا وقَدَرُنا.

اخترناها واختارتنا، هي قدْرنا لأنّ عظم النفوس بعظم تحملاتها وآلامها، وهي قدَرُنا لأنها رهن الإيمان تتبعه اتّباع الفصيل أثر أمِّه، وتكون معه في حال الأطـراد ككفتي الميزان، كلّما زاد هو في كفة زادت هي في الأخرى.

ومن عجائب أمرنا في الحياة أنّ مصائبنا مفاخرنـا، وأنّ فواجعنـا مآثرنـا، وأنّ مسيرة الألم والدم سمير لا نأنس بسواه، وأنيس لا نرتضي مـا عـداه، حـتى نبلـغ غايتنا المحتومة بعد محنة السُرى، نصراً مشرقاً كأنـّه شمس الضحى، ورسالة خفاقة اللواء، تفيض بأفانين الآلاء.

قتل الصدر صبراً، ومضى الى علّيين شامخ الجبين، وقـد أبى الله إلاّ أن يجتبيـه للصدارة على شتّى فنونها، صـدارة المَحْتِـد والنسـب، وصـدارة الفكـر والعمـل، وصدارة الفداء والشهادة، على أثر جدِّه الحسين كان ينقل الخطى، ينهل من معـين الصبر عنده فيضاً من الصبر، ويستقي من نبع الصلابة في دنياه الزاكيـة الأبيّـة مـا يبلّ غلته الى الكأس الرويّة، يقوى بها على بلـوغ أسمـى المرتجـى وغايـة المـنى (شهادة) يبقى بها الصدر على فم التاريخ آية في البـذل والعطـاء يرتلـها بخشـوع وإجلال، ولحناً عذباً في الفداء يردّده على مسامع الأجيال. وكان الصدر في دنيانـا ومضى، عمر ومضة عجلان ما انقضى، أمّا نورها فقد ظلّ قضيّة لا يعروها الفناء، مستقرها ومستثارها القلوب والدماء، رحابها كل يوم في اتساع، وآفاقها كل حين في امتداد، وطلاّبها وجنودها كتهتان المطر، كل فوج يليه فوج على الأثر.

ليس فينا بني الإيمان ولا في أهل هذه الملة هـذا اليـوم مـن لا يعـرف الصـدر وشأنه إلاّ من لم يعرف عن الإسلام إلا إسمه، ولم يدرك منه إلا رسمه.

أمّا من عرف الإسلام كما أتـى فكـراً علويـاً يـزري بكـل تفاهـات الأرض وأوهامها، ونظاماً كونياً لم يغادر من شؤون الحياة صغيرة ولا كـبيرة إلاّ أحصـاها

في أحسن تقويم، وأروع تنظيم، فقد عرف الصدر وشأنه، فهما من هنا يعرفان، وذلك عليهما أدلّ بيان.

كان الصدر وما زال وسيبقى ديمة سمحة جمّة الآلاء، فكره العبقري طود شامخ، تشخص صاغرة عند سفحه حلوم المفكّرين، وإبداعه المعجز خضم هائل تجمد عند شطآنه من هوله فطن المبدعين، وجهاده الفذ نهج في الفداء سارت وتسير عليه قوافل الأبرار من أبنائه المخلصين، وأخلاقه وشمائله في كلّ شؤونه هديٌ متكامل أطلّ من روح الإيمان قدوة لمن يقتدون، ومناراً لمن يستضيئون. كانت حياته طهراً ماثلاً يتلألأ كالشمس في إشراقها، ومعيناً دائب الفيض، تمحّضت للخير والندى، وهي جهاد موصول الحلقات متواشج العرى من الصبا الى المنحر.

فقمين ببني الإسلام أن يسيروا على هداها، ويقتفوا خطاها، ويجعلوها مستضاءً وأسوة على الدرب تنير لهم ظلماءه، وتخفف عليهم غلواءه، فإذا هو مسير في السبحات والنور لا يلوي ولا يحور، فإما وسام الصدر بالشهادة والفخر، وأمّا نيل ثأره بالغلبة والنصر.

ومازالت تحل علينا بل تنبعث من قلوبنا ذكرى الرحيل الطهور الى عالم الرضوان والنور، رحيل العظمة قد تجسّدت في هيئة انسان، ورحيل المحاسن قد تمثّلت في وجود بشري للصدر، كان فينا ونأى كعطر الزهرة المتضوع، مرّ علينا مع النسيم تشممناه ثم فارقناه.

مالأوصالي ترتعد؟

وما بال قلبي يخفق بين جوانحي إذ أهمّ أن أكتب عنك؟ مالي أراني نهب الإقدام والأحجام إزاء فكرة الكتابة في حياتك القدسية؟!

ما لقلمي وقد عهدته بالأمس سيّالاً سريع الخطى أضحى إزاء سطور عنك وئيد السير كأنّه يحمل أثقال الدنيا؟

لقد حق لها أن ترتعد الأوصال، ويخفق النابض، وأن أتيه أنا في الحيرة، وأن يتباطأ القلم ويتثاقل، فمعنى أن أكتب عنك اليوم هو إنني أرثيك إذ أطريك، وأؤبّنك إذ أصف مزاياك الحميدة للناس، وأكشف عن خصالك المجيدة لهم بعد أن فارقتهم فروحُك في علّيين، وجسدك تحت أطباق الثرى، وهذا مالم تكن نفسي ترضى أن تصدق به، فلا أعزّ عليها من أن تسلّم بأنّ الصدر العظيم قد فارق الدنيا فراقاً أبدياً، وأنها لن تراه، وتبصر فيه عظمته وجلاله وروحه السماوية المطهرة من جديد.

وإنّه ليتكأدها ويستصعبها أن تقرّ بالأمر الواقع الذي يقول: (إنّ تلك النفس العُلوية الزكية قد رحلت فلا أوبة، وإنّ ذلك العقل الفريد المبدع قد غاب عن الدنيا فلا رجعة، لقد فارقاها دونما معاد).

أُشهدك يا سيدي أنني منذ الأمس الكريه الذي نعوك فيه للملأ حتى هذه الساعة لم أفهم أو لم أُرد أن أفهم هذه القضية ذلك الفهم الذي يُطبق على التسليم به العقل والشعور، فما زال بينهما في هذا الأمر هوّة واسعة.

فها أنا لحكم العقل بموتك محزون على قدر ما تتيحه لي الاستجابة لحكمه في قضية لم تُسلِّم بها المشاعر والأحاسيس، ولن ترضى أن تُسلِّم ماكرّ الجديدان، وما اعتقب عليها من الزمان.

إنه إعجاز شخصك في نفسي يزعّها زعّاً عن أن تُصدِّق بموتك إذ تحسب مخطئةً أنّ موتك خلل في إعجازك، ويدعّها دعّاً أن تصدِّق أنّ الصدر المعجز قد لُفّ بالأكفان، وغيّب بين أحناء التراب.

إنّه حضورك في قلبي ذلك الجلي الدائب الملحّ المهيب كشمس طالعة لا تغيب، يخدعه ويوهمه بأنّ الحاضر الجلي فيه لم يزلْ حاضراً جلياً في الحياة والأحياء.

ويقعد به تطلّعه في نور تلك الشمس الوهّاجة المشعشعة الواصبة في أنحائه عن

أن يرقى الى التسليم بالأمر الذي قد كان، وأنّ شمساً على قالب إنسان يقال له (الصدر) قد أفَلَت، وذهبت وراء الأفق. إنّه نور حقيقتك الشاخص الثاقب، حجزني عن التسليم بقضية نور وجهك الغائب.

لقد نعاك لهم الناعي فبكوا لأنّهم صدّقوا.

أمّا أنا فقد ذابت أركاني فهويت لاقرار العقل إلاّ دمعتي فهي جامدة لا تذوب، إذ لم تسعفها لتذيبها حرارة الإحساس بالمصاب من القلب الذي لا يُريد أن يُصدّق.

ورفعوا اللافتات وساروا متظاهرين، وسرت معهم مُنقاداً بزمام العقل الذي أقر بالحقيقة الحاصلة، غير أنّ عواطفي تصيح بألف لسان: عجباً لكم أيّها المتحشدون، كيف سارعتم الى الإذعان وألقيتم بأيديكم، وأسلمتم قياد القلوب لسطوة التسليم؟

وهل كان من أذعنتم لحقيقة الرزْء به كأحدٍ من رجالكم يسهُل عليكم أن تفجعوا به، وأن تقرّوا بالفاجعة لتعطوها من الشؤون والشجون ما يكون وفاءً لمعشار حقِّها أو لا يكون؟!

لقد أنصفتم أنفسكم، وصَدَقْتموها الخبر، ولم تخدعوها فذاقت أياماً لوعة النبأ الأليم، وودّعت من الحياة صدرها العظيم، فتطامن جموح اللوعة، وسكنت عرامة الخطب، وخمد هياج الغمّاء، ثم مرت بكم الأيام فإذا الصدرُ في حياتكم ذكرى تجدّدونها كل عام.

أمّا أنا فما زالت نفسي والفاجعة في قطبي هذه الأرض بينهما بُعدَ المشرقين، تتبدى لها هذه من المغرب حالكة السواد، فتطلع عليها تلك من المشرق بضياء الصدر المقيم فيها، فلا ترى وهي في لجج النور الثاقب تلك الظلمة المغربيّة التي تنقشع، فلا يبقى منها إلاّ خيوط باهتة يبصر ويقرأ فيها العقل وجه الحقيقة وحديثها، أمّا النفس المحبة الولهى التي اعتنقت طيف الحبيب تحسبه هو، وتعلّقت

عينها بجماله وجلاله كأنّها تراه حساً، فلن ترى، وإن رأت فلن تصدّق، ولن تقرأ، وإن قرأت، فليس إلاّ ظلال حروف معكوسة عجلان ما تصاب بالكلال في ترتيبها، والعجز عن ردّها الى اصلها، فتغض طرفها عن وجه الحقيقة المرّة لتحتضن الوهم، يبرّحها من العقل نداء غليظ متصل يقول لها: (قد كان ما تتخوفين من الخطب الجلل، ولقد أحسن الناس حين أقاموا مناحاتهم فأطفأوا بالدموع نار التفجّع، وأخمدوا بماء الشؤون لظى الشجون، وأذلّوا بالإقرار والتصبّر وطأة المُلمّ الجسيم، أما أنت يا نفس فارضي إذا شئت بالمكابرة والشموس، لتصطحبي الفاجعة مدى الدهر، أو اركني مستسلمة، وأصغي الى النداء الحق، ليكون لك مع الفاجعة ما كان للناس، فورةٌ من العناء أطفأتها رويداً رويداً سحب هاتنة من السلوّ والعزاء).

ولا يزال هذا هو دأب نفسي النافرة الحرون، تصك سمعها صيحة النبأ الفادح فكأنها لا تسمع إلاّ نَبَأة[1]، وتترى عليها براهين الواقع فكأنها لا ترى إلاّ أوهاماً نسجتها الخيالات، لقد أصمّها الحبّ وأعماها، فعزّ عليها أن تشعر بالخيبة في هواها، أو جلّلها خوف التصديق وغشّاها، فحجبها عن حقيقة هذا الأمر في دنياها.

١ـــ النبأة: الصوت الخفي.

المقدمة

الحديث عن ذلك القلب العملاق الذي تمحّض نصاعة ويقيناً وعشقاً، وتلك الروح السامية التي تجسدت ألقاً واشراقاً وسمواً، وذلك العقل الفذ الذي طلع على البشرية من أفق العلياء نبوغاً وشموخاً واقتداراً، وتلك العزمة الشماء التي ثارت أعصاراً جبّاراً من صميم الهمة القعساء لليقين الفرد والوفاء الوتر، وذلك الإيمان المتجسم صدقاً وعرفاناً ورسوخاً، فلم يكذب حيث تتهاوى دعاوى الكاذبين، ولم يُستشف أو يُسبر لأنه محيط هائل بلا قعر ولا ساحل، واندفع ذوباً في مصهر العُلقة الرائعة، ومنافسة للأطواد الشامخة في الاستمساك.

الحديث عن ذلك كلّه صعب عسير لأنّه يحتاج الى حديث الحقيقة التي لا تُنطقها الألفاظ البشرية العجم واللغة الشلاء، وهي ليست تألو على بعدها عن ذلك جهداً في (الفضول والتطفل) للافصاح عن بعض الشعاع الغامر والفيض الزاخر، دأب الكوة أو القطرة في الافصاح عن غمرة الشمس او لُجّة البحر، وكما تبقى هاتان عاجزتين عن أن تشيا بحقيقة ما دلّتا عليه تبقى أدواتنا اللفظية على ضعفها المشهود، في طوق العجز عن الوصول الى معالم العظمة في هذا الوجود، كأنها ريشة تروم السبح في الإعصار القاصف، أو عين عشواء تريد أن تسبر

بالنظر الواهن اجواز الفضاء، او يدٌ جذّاء همها ان تنوش ذُرى الجوزاء.

هكذا الحديث عن شهيد الإسلام الخالد، حليف المحامد، الإمام الثائر، القتيل في سبيل الله والثورة على الطغاة، السيد الصدر، عليه تحيات الله وبركاته. وإذا كان لابدّ من شيء يعرّف بعض شأنه وفاءً لحقيقته الجديرة بالتبيان، وأداءً لواجب العشق له، ذلك الذي مازلت أحترق بناره مذ عرفته فأحببته، واعظاماً لذلك الشأن الرفيع الذي يكون عرفانه والذوب فيه، والترنم بترانيم الولَه به، من تعظيم الحرمات المطلوب فرضاً على العباد الذين عرفوا الله، وحرمته، وأوليـاءه العظام، وحرماتهم، فوقّروها وقدّسوها، وأعطوها بعض حقها من كل جهدهم، وبقي سعي النيات الصادقة في فسيح اللهفات الحرى حافداً الى نيل رضا الله وعفوه عن القصور أو التقصير.

فالصدر شخصية عظيمة من فرائد النفوس العليّة، وبدائع الذات الأزلية، ارتضاها الله وأرضاها، وحبا بها بعد ما حباها، فزيّن بها فيما زيّن به الدنيا الشوهاء، وهدى به فيما هدى به في الداجية العمياء.

لقد كان إنسياً طهراً متجرداً كأنه ملاك، وكان روحاً متمحضة للشفافية والصفاء واللطافة، كأنه لم يعرف الجسد الخنّاس، ولا نوازع الوسواس، وكان فضيلة متعالية تزهو في ذروة التسامي، تزري برذائل الدنيا وطلابها، وكان عشقاً فرداً وسع هواه العذري وجود الغرام والهيام، وانماث في سبحات الحبيب الأسمى ولهاً وتراً ليس له مثيل.

في قلبه حكمة بالغة يفوه بها ضياءً وبهاءً، وفي عقله فكر ثاقب يبديه سداداً ورشاداً ودلالة هادية، وفي نفسه شعلة وهّاجة من العرفان يلذ بها لذة لا يتسع لها فهم الدنيا، ولا تحيط بها فطنة ذوي الألباب، وفي روحه ضمير حي دائب، ووجدان متيقّظ حسّاس، يكمن فيهما بمنتهى الحضور والرقابة هيبة ربّه وجلاله

يحضّانه على الخير، ويزعّانه عن الشر، ويقفان به وقفةً عاصمة او شبه عاصمة عند حدود الله،، ويأخذان به أخذاً مقتدراً حازماً الى ما فيه رضاه.

مقاوم الحق هي مهوى سلوكه البديع، ومنازل الصدق هي مواضع خطاه النبيلة المقدّسة على النهج الرفيع، ومذبح الظلامة المشهودة لم يبرح يسيل عليه دمه الزكي ليملأ راح الشموخ يشمه عبيراً يبزّ كل عبير، ويرفعه الى السماء تجلّه وإعظاماً، ويستخلص معانية السامية ليرشها في الآفاق دروساً في الفداء، وآيات للتضحية، ومستثاراً للهمم والعزائم.

الصدر وقدة لا تخبو في قلوب المجاهدين الذين ساروا على طريقه مهطعين، وحسرة ضارمة واصبة في صدور ذوي الأسى المتصل لمأساتهم به.

(والصدر هو وصل القضية الكبرى بأمها، ووشيجة المعنى العظيم بأبيه الذي ذابت له مهجة السبط الشهيد في كربلاء، وورثه ثقلاً هو تاريخ من الآهات والحسرات، فذاب له ذوباً حسينياً تجددت فيه فصول التهمام، والآلام الطفّية التي لم يزل فَمُ التاريخ يتلوها آيات من وحي النجدة والفداء للحق المهتضم).

(الصدر ظلامة الأولياء الذين لم تعرفهم أيامهم، ولم يخبرهم أقوامهم، ولم ينصفهم الحسد الظلوم، ولم يرحمهم الحقد الغشوم، فعاشوا نبذ الجهل والعداء، وعرامة السفهاء الأشقياء، وتجرّعوا نُغَبَ المرارات، واكتووا بنار الحماقات، فصبروا يُعلّمون الاصطبار دروساً لم يقرأها، ويطلعون عليه بمشاهد لم يبصرها، فيخشع للمشهد العجيب، قد طوى دنياه الممتدة فضاء رحيب، امتدّ وانداح من تصبّر الصدر حتى طوى بيمين الاقتدار كلّ معاني المرابطة الشامخة، فهي سكرى بصعقة الهول من دهشتها).

لله هو حيث كان في أفانين الغمرات للأهوال يخوضها بعجائب البطولات النفسية، وفرائد الحماسات المعنوية، فإذا هو على أثباجها المتلظية وهامات موجها

المستعر صلابة طودية لا تنحني، وعزيمة هادرة لا تخور ركل المحن كلها بالقدم الثابتة للايمان الثابت بعدما قارعها بالجراح النازفة، وثاورها بالكلوم الراعفة، حتى إذا عاد كله جرحاً واحداً تفجرت ثورة النزف فانطلق عزم الشهادة من عزّة الجبروت، يقتحم خضم الآلام بلا مهابة، ويباسل جحافل الشرور بلا شيء من الخوف.

ثمة في عالم البأس المطلق، والعزم المستخلص، والاقتدار العجاب الذي حير الألباب.

لله ذلك اللواء الرافع الفذ طلع جديداً غريباً وحيداً كأصله لواء المصطفى، ومشى على الدرب يجدد فصول تلك الملحمة العظمى، ويحييها في الواقع بعد إذ هي روايات في التاريخ تُقرأ على المنابر.

حار في أزقة النجف كما حار جدّه في أزقة مكة، وزعق في وجهه الأكابر والأشراف، ونبزه الجاهلون بمنكر النعوت، ورماه الحمقى بحجارة التسفيه والتقريع، وعصفت فيه زعازع الصنمية للفكر المتحجر، وعبادة القديم إرث الأولين، وخلق الأقدمين، ولقي من العنت المستشيط ما لا قبل لأحد سواه به، وهرع إليه السفهاء بالقوارع، وقعدوا له في مرصد المساءة، ولم يألوه خبالاً، ولم تضق قلوبهم بما طوت من المدى الفسيح من الكراهية والشنآن، ولم تضعف أيديهم عن أن تبسط بالشرور، ولم تتوان أقدامهم عن أن تخطو خطاها المسرعة صوب أذاه، ولم يزل دأبهم التركاض في شؤون الوقفة في وجهه بألوان ما طلعت عليه من فنونها وشجونها، وخاضوها عليه حرباً عواناً إعلامية ونفسية، وجعجعوا به حتى تركوه رهين شعب الوحدة إلاّ من صفوة الناصرين، ومنعوا عنه الناس وعونهم، وألّبوا عليه اغرارهم، فصيروهم صحفاً تنطق بمثالبه المزعومة ومعايبه المفتراة، ولم يقعد ببعض ذوي الأضغان حقدهم اللئيم عن أن يشوا به، ويحفزوا عليه همة عدوه

الحاقد، ويشحذوا سيفه الباتر، ليقدّ رقبة من أقضّ مضاجعهم، وأرّق دجاهم، وجعلهم نديّ الهم والأسى، في ليل طويل ثقيل، يسامرون الشبح الرهيب لذلك الرجل العجيب.

ولله ذلك الصوت الذي لم أنسه ملائكياً منساباً، كأنه همس الندى في السحر، ينسل بهداه عبر حواجز الرين والأوهام، يمسح على القلوب بأنواره الحالمة ينقّيها من ألواثها، ويجلو عنها أغباشها، ويوقظها رفيقاً وادعاً في عالم الصحو والانعتاق، لتنطلق معافاة نشيطة بروح الصفاء، وقدرة النقاء، تحلق في عالم الفضيلة الممتدة بلا حدود، المتمادية بلا آماد، الضاربة في أعماق الحقيقة الناصعة الخالصة، حيث التجلي والمثول في لجج الأنوار والبهاء، في أحضان الحياة السامية، في المنأى القصي عن أوزار التراب، وأثقال الطين، وكبول العالم الدنيوي، واغلال الحياة المعتمة الهابطة.

لله هو لم أنسه بريئاً، وادعاً، قد حفَدَت إليه المزعجات الوتر بمعابلها النكر، فمدّ إليها يداً بيضاء خالية من أسباب المحاجزة والممانعة، يذود بها عن قلبه الغافل المحصن، فاستعصمت تلك بخبثها وشراستها، وراحت تلحّ بطعنها الدراك المتصل على ذلك الفؤاد المتلفع بدرع الصبر العياء، الممتنع على البلاء يقفوه البلاء، فما أفادت إلاّ الأرق الشريف، والسهاد المقدّس، والدمعة الحانية الرؤوم، تُذرف أسىً وحسرة على الذين يكون ظلمهم له مباءة أثمهم ووزرهم، ودعاءً خاشعاً عارفاً بالمغفرة ينبعث من نار اللوعة لحيف ظالميه، ونور الرحمة لخبطهم في متاهة البغي والحسد.

تا لله لا أنساه ينطق بالكلمات الهادية في غربة ضيقة خانقة، لكنّها في أمله الباسم فسحة الكون، ويطرح فكره الفذ المجدّد في وحدة التفرّد ولوازمها من عرامة النّسك الجاهل، والغيّ المتهتك، ولكنه كان مع اقتدار اليقين والبصيرة والاحتساب

في عالم الإنس الطافح بنصرة الحق الظافر، وعاقبة الحقيقة الخالدة، وأهلهما الكثر شاهدين، أو في أرحام الأيام، تتمخض عنهم ولاّهاً متيمين، يدينون بأعظم الولاء لعاشق الحقيقة الصابر المنتصر، ويذرفون دموع العشق والعرفان والامتنان تهيجها قلوب والهة، ونفوس هائمة، قد امتلأت بحب الصدر الذي أبى إلاّ أن يتقمّص الحق في غربته، ووحدته، وتبعات نصرته، ليكون بعد برهة مرابطة محتسبة فضاءً ممتداً من الإنس للغرباء والمستوحشين، وسكناً ناعماً للمرهقين والمعذّبين في أطواء وحدتهم وغربتهم.

(ولا أنساه يتلو علينا بعض النبوءات عن أمرنا، كأنما يقرؤها في.صفحة الغيب المشرقة في أفق بصيرته النافذة، يحدثنا عن دنيا الرشيد التي كانت تتسع لكل شآبيب السحب الهاتنة تحوزها جميعاً، ولا تغادر منها شيئاً لا تصيب درّه وخيره، فكان يسخو لها بكل شيء حتى دينه، وعن دنيانا التي عجّت بالأوهام، بينها وبين الواقع بعد الحقيقة عن أضغاث الأحلام، لا تعدل مثقال ذرّة من دنيا هارون، فنضن عليها بكل ديننا أو الكثير منه، وعن الهوى الهارونيّ السخيّ المتربص في ظلمات الأعماق المستترة وراء حجب السرّ او سره، الكامنة في أعماق نزق الوثبة للنزعات والنزغات، وعشق الزخرف السخيف، خنقها دون التفجّر قصور الاسباب، وقضية (المقتضي والمانع) فإذا محّص البلاء بنعيمه الآسر الأخاذ، هناك تكون آية الصدق والكذب، ويمتاز الديانون الصادقون عن غيرهم، الذين إن خنست دنياهم قبعوا متدينين، وإن طلعت عليهم بزبرجها وثبوا متحللين).

الجانب الخلقي

الجانب الخلقي من حياة الإمام الشهيد مثال حي جامع لتربية الإسلام وخلق الرسالة الإلهية، قد نسجت خيوطه المباركة من روح التربية القرآنية، ووشجت فصوله المنيرة من كيان الهدى والاستقامة، فلا ترى حيث أدرت الطرف فيه إلاّ فضائل عبّاقة فاحت طيوبها، ومحاسن لألاءة أضاءت شموسها، ومكارم قدسية قد طلعت بوجوه ملائكية. لقد كانت للإمام روح ملكوتية تمحّضت يقيناً وكمالاً، وتجلّت طهراً وصفاءً، لا يشوبها شوب من السوء يعيب طهارتها، ولا يخالطها مسّ من الكدر يشين صفاءها ونقاءها، ولا يمازجها، نزر من الريب ينقص حظها من يقينها ورسوخها في عالم الحقيقة، ولا عجب فهي حفيد الكمال، وسلالة الطهر، وعترة اليقين، وهي قبل هذا غذيّة القرآن، ورضيعة الإيمان، قد ترافد النسب والسبب على تنقيتها، وتناهض الأصل والعمل على الإرتفاع بها الى بحبوحة الحق، أسوة لمن أرادوا الله، وقدوة لمن عشقوا الذرى والمجد.

يخبط في الوهم، ويَعْمه في الديماس، ولا يعطي الأمور حقها، ولا يأتيها من وجوهها، من ينظر الإمام الشهيد من جهة علمه وناحية فهمه، فيقول ما أعظم هذا الرجل! فقد كان فيلسوفاً، او نابغة، أو يتيمة الدهر في فكره، وإعجوبة الزمان في

عقله، زاوياً نظره عما كان له الإمام الشهيد نابغة وإعجوبة، من السعي الى كمال النفس، ومعرفة الباري، وأداء حق العبادة، وليس العلم إلاّ وسيلة الى هذه الأمور، وطريقاً اليها، فشرافة العلم في شرافة غايته، وجلال قدر الفهم في جلال قدر الهدف، وإلاّ فيا ضعة الفهم الذي لا يجدي، ويا خسيس قدره!

لم يكن الإمام الشهيد في ذلك المقام المشهود والمنزلة القاصية ليقول عن نفسه أو يقال فيه (عالم لا يطاول في علمه، عبقري لا يُحاول في فهمه).

إنما كان الإمام على ذلك القدر من الشمول والاحاطة والنبوغ لأنّ دينه شامل، محيط يزخر بحره العباب بالعجائب، ويتلاطم تياره برغائب العقل، وضوال الحكمة، ولذا بذل غاية جهده في معرفة دينه، فذلك السبيل بعد معرفته ربّه الى أن يعطي معبوده حقه بما فرضه من العبادة التي أوعبها عقله لتتحرك بها أركانه. أمّا من ينظر الشهيد السعيد نفساً متكاملة، وعملاً زاكياً رضياً، وخلقاً رفيعاً بهياً، فذلك الذي رآه من حيث ينبغي، ونظر إليه كما يجب، وأفاد منه وأفاد به.

(إنّ العقول الكبيرة كثيرة، وإنّ الأفهام المشهورة موفورة. وأما النفوس التي تقاد بزمام العقول، والقلوب التي تملك أعنتها الأفهام، والسلوك الذي يصنع على عين اللب وبيده، فتلك نوادر قلّت، وشوارد قد استعصى نيلها، وأعيت على سعي الطالبين).

إنّ الإمام الشهيد قد استحوذ على القلوب، وكان له موضع الاعظام في النفوس بعمله قبل علمه، وبتقواه قبل فهمه، وبنزاهته وقداسته قبل عبقريته واحاطته، ولذلك أحبه من لا يعرفون العبقريات ليقدّروا أهلها بقدرها، وشُغفَ به حباً من لا يدركون العقول النافذة والأفكار المبدعة ليعظموا اصحابها ويدينوا بالإكبار لذويها،

ويخفضوا لهم جناح الذل طاعة وانقياداً.

(لقد أبصرنا فيه مخايل الصدِّيقين فأحببناه وأطعناه، ورأيناه بحال الأتقياء فأعجبنا به، وخضعنا له، ورأيناه يهابُ ربّه ويخافه فهبناه وخفناه، ورأيناه قد أسلم زمام قلبه لخالقه فوهبناه أزمّة قلوبنا، لا نخشى مغبّة ذلك الانقياد، ولا غائلة ذلك التسليم، ولا عقبى تلك الطاعة، لأنّ من يخاف الله لا يهدينا الى سواه، ولا يدلّنا على غير طاعته ورضاه).

آه يا تلك النفس الرضية العالية التي كانت فينا فيضاً من اللطف الميمون، حبتنا به السماء تحنناً، غير أنّا جهلنا عظيم النعمة، فما عرفناها حتى فقدناها.

آه يا ذلك الخُلقُ الرفيع البديع الذي توقد في دنيانا نوراً بهياً، غمر أرجاءنا بالفضائل العلية، وأضاء دهماءنا بالمحاسن السنية، وفاح منه في اجوائنا الهابطة شميم السمو، يدعونا الى العروج بأرواحنا الى آفاق الكمال، ويستنهض فينا همم التعالي، ويستثير فينا عزائم الارتقاء.

آه يا ذلك العقل الفرد الذي سجدت له العقول يعتصرها الخشوع في محراب الإعظام والإجلال.

آه يا ذلك الفكر الثاقب الذي هوت صَعِقةً بين يديه الحلوم والأفهام خاضعة.

آه يا تلك الرجولة الباسلة التي وقفت تتحدى الطاغوت العاصف كأنها الجبل الأشم الراسي، تهزأ بصروف الباطل، وتسخر من رعود الوعيد والتهديد، لأنّها كانت لله ومن الله، ومن كان هكذا فليس يعبأ أو يحفل، ولأنّها كانت للحق، ومن كان له فهو بعين الله على ميعاد من نصره وتأييده، بالشهادة الثائرة، او بالغلبة والظفر.

آه يا ذلك القلب الكبير الذي وسع الدنيا مداه، وإن كان فيها كقبضة كف، وأحاط بها وإن كان في صروفها رهيناً، ورقى هامها يبصر فيها ويفيض البصائر وإن كان في غمراتها، قد طواها بيمين اقتداره، واحتواها عمقه، وأحصاها تدبره، ونفذ في أرجائها بصره، وملك زمامها ولم تملكه، وقادها بخطامها ولم تقده.

بهارجها المغريات في عينه تفاهات، وزخرفها الخادع الرغيب ليس له في رغباته نصيب.

قلب تمحّض للمعالي، وهام شوقاً الى ذرى المكرمات، متنصلاً عن هموم الدنيا إلاّ هم اصلاحها، معطلاً في شؤونه شأن الرغبة فيها، معرضاً عنها، زارياً بها،، ساخطاً عليها لنفسه، قد تمثل له جلال ربه فكأنه قد رآه فصَغُر في عينه ما عداه، وشخص له نعيم ربه فكأنه قد ابصره، فهو منصرف الهمّة شطره، خالص الرغبة فيه، منقطع الشوق اليه، قد استكثر من أمره قليل ممارسته لشؤون الإنسان الدنيوية التي غرست في جبلته، واستقل كثير رياضته لنفسه، وعصمته لها، وحرصه على قربها من ربّها، وصونه لكمالاتها وفضائلها.

قلب لم تعرف إليه توافه الهموم سبيلاً، ولم تجد عنه عظائمها منصرفاً، قد حازته المكارم اليها فهو عن المناقص في منأىً قصي، وطارت به المحامد على جناحها فهو عن الرذائل في المكان العلي.

(أنظر حياته حيث شئت وأنى شئت، هل تجدها إلاّ علماً واسعاً نافعاً، وشعوراً زكياً، وعملاً صالحاً راجحاً، وفضيلة مشرقة، وخلقاً رضياً، ودمعة حرّى خاشعة من تقوى الله، أو رحمة لعباده).

لقد أحببتك يا سيدي مذ رأيتك حباً عجباً، لأنني لم أعرف أصله، فإذا كان

حب الشيء من معرفته أو الاعجاب به، فأنا إذ ذاك أقل من أن أعرفك على حقيقتك، أو ادرك كل مزاياك التي تثير الإعجاب.

بل أحببتك حباً مُبرّاً من أن يكون مستثاره ما يسمونه (التقليد)، فلم أجد حبك في قلبي يعني تقليدك والعمل بآرائك، فذلك شأن المقلدين، بل وجدته هياماً أو كالهيام، وصبابة او كالصبابة، وهذا هو شأن العاشقين. لقد أحببتك منذ سمعت بك، فقد جعل الله حظك موفوراً مما أراده لأوليائه! (**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً**).

وكثير هم أولئك يا سيدي الذين أحبوك وعشقوك مثلي حتى قبل أن يفهموك، وكان هذا سراً كشفته الأيام على لسان الشهادة، بل قبلها، إذ استبان أنّك رجل إلهي مقدس، قد أحبك الله، وارتضاك، وأراد لك أن تستوي على عروش المحبة والقداسة في قلوب عباده، فألهمهم حبّك وتقديسك، ليعرّفهم بعض شأن أصفيائه عنده، إذ يحبهم ويمكنهم من أزمّة الأعماق ومقاود الأفئدة، ويبيح لهم فاتحين ظافرين حمى النفوس.

إنه يا سيدي عالم شاسع بعيد الجوانب، قد امتد حتى ترامت أطرافه، هذا الذي أريد أن ألجه فأقتبس من أنواره، وأعبّ من تياره، وأقتطف من أزهاره. إنّه عالمك الرحب المضيء المتضوع، الرحب على سعة عقلك وقلبك، المضيء بنور علمك وعملك، الفوّاح بأريج شمائلك وخصالك، ولا عليّ بعد ذلك أن قَصَرتُ طرفي على صوب واحد فيه مخافة أن يتشعب النظر فتتيه الفِكَر، وليكن الصوب المنظور هو الجانب الخلقي من حياتك الطهور، فهو عندي أصدق خبراً عنك، وأجلى بياناً عن شأنك، وأيسر سبيلاً الى معرفتك.

وصفحاً يا سيدي ثم صفحاً إن كنت نسبت إليك كلاماً قاله لسان حالكَ الموحي لا لسانك الناطق، مجاراة لشبيهاته الوافرات من كلماتك الساميات، أو رسمتك إذ غبتَ عن عيني، وعزّ علي التحقق بحال أنت أهلها وهي شأنك، محاكاة لنظائرها الكثيرات من احوالك البديعات.

العبادة

(لقد كان الإمام الشهيد الصدر أعرف الناس بالله فكان أخشاهم له، وكان أدراهم بحقّه وطاعته، فكان أسبقهم اليها، وأوفرهم حظاً منها، وكان أوسعهم علماً بدينه وفروض ربه، فكان أنصبهم عبادةً له، وأجهدهم لأركانه في عباداته).

لقد كان له من آبائه الأكرمين سجية العشق الإلهي، وخصيصة الهيام بالباري، فكان معشوقه دائم الحضور في قلبه، واصب الشخوص أمام عينيه وعلى لسانه، لا يفترُ في ذكر مسبحاً له، أو تالياً لكتابه، او هادياً اليه، ومبيناً لأحكامه، أو ناشراً لشرائعه وفروضه.

كان متيّمه إزاء ناظره فهو موقوف الطرف عليه، موجّهاً وجه روحه اليه، مطمئن القلب بذكره. (لقد كان ربّه حاضراً عنده لا يفارقه، فهو معرفة في عقله، وذكر على لسانه، وعمل بأركانه، ولم يتبق من الصدر لغير ربّه إلاّ صبابة في الإناء هي بلغتهُ من حياته، إذا كان لابد من هذه البلغة). إذا جنّه الليل وهو ربيع العاشقين كان للمدلّه المعمود لقاء بربه لا يساميه لقاء، وكان له معه وصال لا يدانيه وصال، قد خفّت الروح وشفّت إذ برّح بها الشوق وبراها الهيام، فانفصلت

عن طين الأرض الذي يلفها ليجسمها، وعرجت الى سبحات الله القدسية، وارتفعت في مدارج الشغف والوله، يسيّرها صدق الود الى المودود، وتدلها بلاغة الحب على المحبوب، حتى تقرّ بها في رحابه وآفاقه العلّية، تذوب في أنوار الحقيقة، وتنهل من معين اليقين، على حال يعجز عن نعتها الواصفون، ويقصر عن التعريف بها غوص الفكر وبلاغة الفطن.

وتمضي سدف الليل تنجلي رويداً رويداً، وينتهي أمد الوصال، وتعود الروح مقسورة الى حبسها الجسدي، عينها وهمها في السماء، لا تعير طرفاً الى الدنيا، ولا تأبه لها على حال.

لقد كان له تبتل الرهبان وانقطاعهم في ممارسة للدنيا نزيهة طيبة.

وكان له انشغال بربه لا ينسيه أدنى حظه من مطالب الجسد التي صيّر منها مطالب محبوبة لخالقه، مقبولة عنده، مكتوبة لديه في حسنات عبده وطاعاته، فلا أُخراه تشغله عن هيِّن حظه من دنياه، ولا يسير نصيبه من دنياه يصرفه لحظة واحدة عن أخراه.

كل دأبه لربه، وكل سعيه في طاعته، وكل نشاطه في مواضع رغبته، لذلك استخلصه لنفسه تكرمة له، وأحبّه حبّ العاشقين، وجرى معه على ما نَهَجَه في المروي من حديثه القدسي: **(من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني أحبني، ومن أحبني عشقني، ومن عشقني عشقته، ومن عشقته قتلته، ومن قتلته فعليّ دِيَتُهُ، ومن عليّ ديته فأنا ديته).**

كان يتقرب الى الله بكل القربات، ويتذرع الى رضاه بالذرائع المشهورة، فكانت

صلاة الليل أنيسه وربيع حياته، يحتسي منها كؤوس الحب الإلهي، ويكرع فيها من معين اللقاء المقدس في الحضرة العلوية، قد تفجرت نفسه عيوناً من الخشوع والبخوع. وصبت عليه السحائب المثقلة لمعرفته بخالقه وابل الذلّة والانكسار بين يديه، قد أعلقته حبائل الشوق المكين، واحتبلته أشراك الهيام الآسر، واهتز عوده، ومادتْ أركانه، وخفق قلبه، فخرجت من بين شفتيه الذابلتين كلمات النجوى مع الحبيب الأسمى مهزوزة يُغالبها النشيج، قد شخص بعينيه الدامعتين الى السماء، ورفع يديه المرتجفتين اليها يردد كلمات العبودية والضراعة، ويتلو آيات المحبّة والإعظام، يسأل الله ـ بعد الدعاء لاخوانه وصحابته وأبنائه وتلامتذه ـ ألاّ يتركه، ولا يتخلى عنه، ولا يصرف عنه عين لطفه ورحمته، وأن يكون له في كل الأحوال رؤوفاً، وعليه في جميع الأمور عطوفاً، وأن يختم له بالخير، وأن يرزقه الشهادة.. ولا يلبث كذلك وامقاً لا يغفو، ساهراً لا يلتقي جفناه بنوم، حتى يحس قلبه المشوق أنْ قد تم اللقاء واكتملت فصوله.

ومن كان حاله مع الله في النوافل على هذا القدر من الخشوع والرهبة، فهو في الفرائض الواجبة في مثل هذا القدر إنْ لم يكن فوقه، وإن كنّا نحسب أن لصلاة الليل وضعاً يخصّها لأنّها شرعت وقت لقاءٍ شاعري للمحبين، حيث تغفو العيون، وتهدأ الأصوات، وقد يكون لهم في هذا اللقاء ما لا يكون في غيره أمام الملأ لصارف الحياء، أو لدفع غائلة الظن بالمبالغة أو بالرياء.

وتأتي بعد ذلك تلاوة القرآن فهي في حياة الإمام الشهيد أمر كبير، أولاها من همّه وعنايته بقدر ما عنده عنها من فهمه ودرايته، فهو يتلو كتاب الله وكأن الله هو

الذي يتحدّث اليه بكلماته، ويردّد الآيات كأنها تهبط توّاً من علياء السماء، قد استحضر المشهد على حقيقته، وردّ القضية الى أصلها، ربّ يكلم عباده هدياً وتوجيهاً وموعظة وتذكيراً، ووحي يتنزل بالآيات الساميات، وعباد يستمعون قد أغرقوا في الخشوع والرهبة، وإذا كان هذا هو أصل القضية، فليتصور الصدر الشاعر إذن نفسه أمام رب رؤوف رحيم يتحدث اليه، يكلمه ويهديه، ويعظه ويذكّره، وإذا أرجع الصدر المستهام القضية الى حالها تلك فعلام لا يخشع قلبه كأنه يتقطّع، وفيم لا يقشعر جلده كأنّه يُصعق، ويضطرب بدنه كأنّه المقرور، وتخفق جوانحه كأنه السليم، وتخنقه العبرات، وتهتن عيناه بالدموع، وتروح به الآيات الزاكيات تطوف به على عوالم قدسية، ورحاب سنية، ومقامات عليّة، لا يؤوب منها مكرهاً وعلى لأي إلاّ حين يلحُّ عليه نداء ثقيل من وقته ومشاغله.

وأما عبادة الصدر في علمه الذي أعطاه زهرة عمره وجلّ راحته، فهو خير زلفاه الى بارئه، وشفيعه الى قربه، ووسيلته الى الدرجات العلى في بحبوحة الرضوان.

وكيف لا يكون كذلك وقد طلع به هدىً للقلوب، ورشاداً للنفوس، وسداداً للعقول، كما لم يطلع طالع من علماء هذا الدين الحنيف على أمته بمثله، علماً يجسّدُ للبشرية حقيقة الإسلام فكراً وهدياً ومنهجاً، فاستنار المدلجون، واستيقن المستصبحون، وتكشفت غشاوات الحيرة، وتبددت ظلمات المتاهة، فهب بشير الصحوة الرشيدة وما يزال يملأ أرض الإسلام باشراق نوره، وعزمات ثورته، وعطاء فدائه وتضحيته.

وإنّ أسمى الوان العبادة في الحياة القدسية لتلك النفس الزكية عبادة الرفض والإباء والوقوف الباسل الهمام في وجه الجفاة الطغام، على علمه بغبّ ذلك من عرامة الظالمين الذين أباهم وتحداهم، ودعارة الكافرين الذين رفضهم وسرّى رفضه يزلزل أركانهم، ويهدّ عروشهم (لأنه كان يركع لله لم يركع لاعدائه، ولأنه كان يعبده وحده مخلصاً له الدين بقي مخلصاً له الدين، فلم يشرك به أحداً، ولو في حدود أدنى الطمع فيه أو الخوف منه، ولأنه كان معتصماً بالعروة الوثقى، مستمسكاً بها انفصم في قلبه ما عداها من العُرى أيّما انفصام، وركل الولائج من دون ربّه ركْلَ ذوي البصائر العارفين بشأن الوليجة العظمى، وذلك عنده هو التوحيد المطلوب أعلى الفروض على العباد الموحدين، وإن كان فيه الاحتراق الإبراهيمي الفرد في نار النماردة المتجبرين، أو العذاب المحمدي الوتر في لهوات أذى المشركين).

وإذا رأيت في حياة الإمام الشهيد رضوان الله عليه زيارة الحسين عليه السلام رأيت امراً تعجب به وتعجب له، رأيت وشيجة بين الصدر وجدّه السبط هي فرع أمّها بينه وبين الله، أساسها حب الله، وخيوطها اعظام آبائه واكبارهم، وارادة المشابهة بهم، واقتفاء آثارهم، ومتابعتهم، ثم جاءت الشهادة لتقول (إنّ تلك الوشيجة كانت فوق ذلك، كانت عهداً يتجدد كل ليلة جمعة من الصدر لجدِّه على أن ينقل الخُطى الصادقة تلو الخطى الدامية الحمر في كربلاء. وأن يقفو أثر الرفض والإباء حتى منحر الفداء، لا يقرّ لضيم، ولا يعطي بيده، ولا يسكت على باطل، ولا يقعد عن نصرة حق، محيطاً علمه بكل ما بعد ذلك مما كان فظيعه لجدِّه

الحسين، من الحصار في فلاة الوحدة بلا ناصر، والقتل على أفجع حال، وتشويه الأعضاء، وتقطيع الأوصال، وسبي النساء، وهتك العيال، وهذا ما كان للصدر على نهج جدِّه، قد عاهده فصدق العهد، ومضى يجد السير يقتفي أثَره، حتى لاقى من كل لون من العناء شبيه ما لاقاه، ليكون بعد ذلك لقاء صراح في عالم الحقيقة والخلود، بين الحسين وبضعته التي مازالت تجذبها اليه جاذبة الدم والنهج الفريد، حتى اكتملت بضعة فيهما معاً).

الزهد

إذا كان الزهد يعني الإعراض عن الكثير من هموم الدنيا لكثير من هموم الآخرة، والاكتفاء من حطام الدنيا بالقليل الكافي، والاقبال على الآخرة من زادها بالوفير الوافي، فإنّ هذا المعنى كان تلك الحياة الطاهرة للإمام الشهيد الصدر رحمه الله.

فلم تكن الدنيا من همه، ولا كانت أعراضها وسفسافها من دأبه وطلبه، على الرغم من أنّ السبيل الى بهجتها وزهرتها كانت ميسورة له، والباب الى لذائذها في ذراها مشرع، فقد آثر الباقيات على الفانيات، واستأثرت به شؤون الحقيقة الدائمة على هموم الوهم الزائل، فكفأ إناء الدنيا، وطلّقها كجدّه ثلاثاً لا رجعة لها بعدها اليه الى مجرد الفكرة في نفسه فضلاً عن التجسّد حقيقة في شؤون عيشه.

قلب ناظريك في حياته مذ كان يافعاً حتى مماته هل ترى غير إنسان هزئ عقله الكبير بالتوافه، وسخر قلبه الرزين بمعتلجات الشؤون الصغيرة، ووجد الدنيا لم تخلق إلا طريقاً الى البقاء الأسمى، وإن الحياة الفانية هذه لم تكن إلاّ وسيلة الى الغاية العظمى، فاكتفى باليسير من حلالها، مصروف الفكرة والعمل عنها الى ما خُلقت له، حتى إنّك لو أردت أن تستخلص من حياته ما للدنيا لألفيته دون المعشار منها على أنّه صيّره خالصاً لله، متقرباً به اليه، ليجعله أخروياً كغيره من

شؤونه؟

خذ إليك مثلاً من هموم الدنيا وكبائر مطالبها، البيت الفاره الأنيق يمتلكه الإنسان يملأ قلبه بهجة وسكينة، ويشدّه الى الأرض، فقد بُني عليها، ويذكّره بها فقد أنشئ منها.

أنّك لن تجد للإمام الشهيد الزاهد بيتاً امتلكه وأحسّ بأنّ له من الدنيا نصيباً كغيره من الناس، وأنه يساويهم إن لم يفضلهم في أول شيء يطلبونه وأهم أمر يبحثون عنه، ولا يُظنّ أن المال كان مانعه من ذلك فلقد بذل الباذلون أن يشتروا له بيتاً فارهاً يسرّه ويرضيه، فأبى ذلك إباء يثبت به أنّ زهده حق لا يشوبه باطل، صادق لا تطيف به فضلاً عن أن تخالطه مساءة الكذب.

خذ اليك من شؤون الدنيا زوجة صالحة تكون في نفس زوجها في الذروة والسنام، قد تملكه أو تملك أكثره، فتصرّف الكثير من أموره بالإشارة دون الممارسة، وبالكلام وإظهار الرغبة دون المباشرة، فيقضي وقته كله أو جلّه في هواها، يسبح في أفلاكها المتعددة.

وانظر الى الإمام الشهيد حيث كان مع زوجه وكأن بينه وبينها من مشاغله الرفيعة كالذي بين السماء والأرض، دون أن يحجزه ذلك الفاصل بينهما عن أن يعطيها كل حقوقها، ويؤدي اليها كل ما فرض لها عليه، على لهفة في نفسها أن تشغل وقتها بهذا الرجل العظيم الذي قرنها الى نفسه سكناً وأُنساً، فتريه الوافر من بديع الصنع في الرعاية له والعناية به، تذب عن نفسه كل عوادي الهموم، وتقوم وجاءً ووقاءً له دون عرامات الغموم.

لقد كان الإمام الشهيد منصرفاً عن سكنه الدنيوي الى السكن الأخروي، مشغولاً عن (أم مرام) بالأمور العظام، قيادته، جهاده، أمته، دروسه، تأليفه، زُوّاره أيام العافية، عُوّاده أيام المرض، فتاوى مقلديه، التفكير في الأمور العارضة من هنا

وهناك.

وكان هذا يزيدها فخراً به، واعظاماً له، وإكباراً لجلالة قدره، تذكره حين تذكره متحدثة عن بعض أموره فيطفح الإعجاب على وجهها، أو يستحيل دمعة خشوع لعظم شخصه تترقرق او تسيل.

وكانت إذا أعوزها أمر الى اليمين أقسمت بحياته، فله في نفسها حرمة بالغة، وله في قلبها مقام مكين.

كانت تسافر عنه لبعض شأنها الى خارج العراق وقد تغيب عنه الشهور الطوال، فلا يُحسّ بأن الفراق يضنيه، بل لايجد له في نفسه أثراً، فهو على وصال ما هو أسمى منها، وأكبر وقعاً في نفسه استحواذاً عليها، ولا يأخذ من فكره أو خاطره شيء إسمه فراق الأهل، أو بُعد الزوج مهما طال.

وخذ إليك مثلاً من شؤون الدنيا شأن المال، وما يكون له في نفس المرء وعقله من الهمّ الدائب والفكر الواصب.

كيف يجمعه؟

كيف ينميه؟

أيّ حاجاته الرغيبة يشتريها به؟

أي أموره الحبيبة يبذله فيها؟

أي مستقبل مشرق زاهر يعده له؟

أمّا الإمام الشهيد فقد كان له مع المال يومان: يوم كان المال في منأى عنه لا يجده لأيسر أموره، ويفقده حتى في الهيّن من شأن طعامه ولباسه، لا يظفر منه إلاّ بما يكفل له أيسر ما يستره من اللباس، وأقل ما يأكله من الطعام، وكان يقضي معظم شهره يستدين من البقال ليعطيه إذا طلع الهلال ما لا يبقى منه بعد أداء دينه الاّ ما يمكّنه مما هو أقل من الكفاف، وأكثر من الحرمان.

ولم يكن ذلك ليؤذيه أو يحزّ في نفسه، على أنّه لم يكن يومها يحمل همومه الكبيرة التي حملها بعدئذ، لكنه كان يعلم أنه على الدرب إليها ومن سلك الطريق بعزم وصدق الى غايته بلغها، ومن طلب المعالي فأسهر لها عينه، وأنصب جسمه رقى اليها.

ويومٌ كان المال ملء كفيه يجري كالسيل اليه، فلم يكن ليخدعه عن شأنه، او يحيد به عن طريقه الذي اختطه لنفسه، إلاّ أن يكون قد رفعه عن وهدة العيش المرير التي كان يقبع فيها الى سطحها دون أن يفكر بالارتفاع فوق ذلك شبراً واحداً، رغم أن غيره من حوله حتى من لم يسمّهم الناس من أهل الدنيا قد ارتفعوا عنه بما يبلغ مدّ النظر وحدّ البصر.

لقد قدّر لأسرته حداً محدوداً من المال يساويهم أو يربو بهم قليلاً على أيسر معيشة لواحدٍ من تلامذته، لا يمكنهم أن يتجاوزوه إلاّ أن يكون قد حل في أيديهم مال غير الذي أعطاهموه فهم يومئذ في منجاة من صرامة قانونه، وفي حِلٍّ من عتبه او غضبه إن أبصر عندهم شيئاً زائداً على مألوفهم.

أتته واحدة من صغيراته في احدى ليالي شهر رمضان لتقول له ببراءة طافحة لقد اشترينا يا أبت (صينية بقلاوة) وهنا يصعد دم الانفعال في وجه الإمام، ويضطرب نابضه المبارك، ويدعو غضبان إليه زوجه يسألها عن ذلك الأمر، فتنبئه أنّه شيء أهدي اليهم، وكثير هم أولئك الذين يودّون أن يهدوا اليهم هدية تنال رضاهم أو رضا الله بالبذل لأوليائه ممن يطلبون الزُلفى الى ربهم سبحانه.

تدخل زوجه البيت وفي يدها شيء من التفاح اشترته بعد مرورها بالسوق، ويرمقها الإمام الشهيد بنظرة عتب قاسٍ ليقول لها بعدها: ما هذا؟ ألم تعلمي أنّه لا يدخل بيتنا في اليوم زوجان من الفاكهة وعندنا الساعة من (البطيخ) ما يكفي أو يزيد؟

وتعتذر زوجه بأنّها تعلم ذلك ولكن صغارها المرضى أوحوا الى نفسها أن تشتري لهم من التفاح ما عسى أن يعينهم على الأوبة الى العافية.

كان خادمهم يمضي الى السوق في حاجاتهم ووصيتهم ترن في أذنه (اشترِ لنا من الأشياء أوساطها).

وقد أوصوه أن يشتري لهم مرضعة (زجاجة رضاعة) فذهب الى السوق تصحبه تلك الوصية، فوجد زجاجة قد رضعت من قبل، فظنّها من ذلك الوسط المطلوب، فاشتراها مفصحاً بذلك عمّا ألفه من وصيتهم، ومن حال عيشهم، وما ألفوه هم منه مما يشتريه لهم.

كانت لدى زوجه ماكنة خياطة قديمة تحرك باليد، فأحبّت أن تستبدل بها غيرها من أيسر الجديد المستحدث، ولكن زوجها الإمام يأبى مبيناً لها أنّ مهم الأمر الذي تقوم به هذه تقوم به تلك، فليس ثمة داع معتد به يدعو الى بذل المال فيها.

كانت تشتكي من بعض العناء في إحضار اللبن الممزوج، فرغبت اليه أن تشتري من هذه الآلة الجديدة التي تمزجه بيسر، بقيمة لا ترتفع حينها الى الدينار الواحد، فأبى الإمام بذل هذا الثمن في شيء قد يكون مما تحتويه بيوت الأغنياء، وأصرّ على زوجه أن تبقى مع طريقتها القديمة في إعداد اللبن.

كان يتأبّى أن يشتري (الثلاّجة)، وهي لم تكن يومئذ من مختصات الموسرين، بل كان يملكها حتى أوساط الناس إن لم نقل أدناهم في معيشتهم، رغم أن بيته الزوجي كان يجد مسيس الحاجة اليها، وظل هكذا خالي البيت منها على هذا الالحاح البالغ من معارفه وأصحابه على أن يعين اسرته بها، وليس يعوزه المال الذي يشتريها به، ويبقى الإمام متأبياً زاهداً فيها، حتى كتب كتاب (المعالم الجديدة) فأهداه الى كلية (أصول الدين) حيث رأى المشرفون عليها ساعتئذٍ أن يهدوا اليه

ثلاجة صغيرة، يمنعه الخلق الرفيع أن يردّها، فأوصدوا على أهل الإمام باباً من العناء، وأشرعوا في وجوههم باباً الى بعض الراحة.

وتظل هذه الثلاّجة تكدح في بيت الإمام أربعة عشر عاماً حتى خارت قواها، وضعفت عن أداء دورها، فرغبت إليه أهله في تغييرها لضعفها وصغرها وبالغ حاجتهم الى أكبر منها، فأبى إباءً شديداً أن يجيبهم الى ما يطلبون، حتى عرف الأمر أحد تلامذته، فاشترى لأسرة إستاذه الزاهد ثلاجة جديدة.

لم تكن تدخل بيت الإمام الشهيد هذه الأنواع الجديدة من (المهد) ما يدخل الكثير من بيوت أقل الناس في ذات اليد، وكان يأمر أن يُشترى لمولوده الجديد مهد من النوع القديم الذي تزدريه أعين الناس، حتى لوليده جعفر الذي أحسّ له أهل بيته وهو يدخل دنياهم بالسرور الوافر، فهو الغلام الوحيد، وكانت تلك القضبان الحديدية المرتبة على هيئة المهد هي حضن ذلك الوليد السعيد بعد حضن أمه.

كان مألوف طعامه إذا أصبح الخبز والحليب، ومألوفه إذا أمسى الخبز و(السكنجبيل)، ومألوفه بينهما الخبز واللبن، قد يصحبهما ظهراً وعشاءً (بالخس) أيسر طعام، وأخف أدام، فما بُسط له الخوان الملوّن، وما أقيمت له المائدة العامرة، وما وضعت بين يديه فنون الطعام وأصنافه، يأكل منها ما يشاء متلذذاً، ويصيب منها ما يريد متنعماً، شرهاً الى ذلك، راغباً فيه، طالباً أياه، باحثاً عنه.

كان له قباءان إعتقب عليهما ـ وهو يلبسهما ـ إثنا عشر عاماً لم يستبدل بهما غيرهما، وأظنّه نال الشهادة وهو يرتدي إحدهما، عازفة نفسه عن تخيّر الألبسة، كما عزفت عن تخيّر الأطعمة.

كان كثير من الهدايا التي تهدى إليهم تبوء برفضهم المشفوع بالعتب إذ يقال لأصحابها: لِمَ لم تذهبوا بها الى الفقراء، وذوي الحاجة من المساكين فذلك أدعى

الى رضا ربّكم؟ ولم قصدتمونا بها ونحن في غنى عنها؟

وكان البعض منها يقبل ليتحول الى من هو بحاجة اليه، يذهبون به اليه بأنفسهم.

لقد زهد رضوان الله عليه في كلّ مظاهر الدنيا من معرفته بحقيقتها، وتساميه بفضائله عليها، وطلبه الباقيات عند ربّه، شأن آبائه الميامين، وهو حين يكتب رائعته الفريدة (فلسفتنا) لا يثور في نفسه هاجس الدنيا العريضة بطلب الشهرة الواسعة، ليجعل ذلك الزاهد المترفع لهيف النفس الى أن يرى إسمه قد سار مع كتابه الفريد في الأرض، تلهج به الألسنة، وتتحدث عن صاحبه المحافل، لقد أراد أن يصدر الكتاب باسم جماعة العلماء زهداً في الشهرة، وايثاراً لغيره على نفسه، وتقديماً للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ولولا رغبة البعض في تلك الجماعة في التغيير في الكتاب مما يضعف مضامينه، ويسلبه الكثير من جدواه، لكان ما أراده الصدر المتسامي قد حصل.

ويتسامى الزهد الصدري ليبلغ ذروة لا يرقى اليها طائر الطموح، تثير العجب بها ومنها إثارة محيّرة حين نراه في محنة الحصار وضيق الخناق حيث تسدّ في وجهه السبل الى الحياة كما يحي فيها الناس، وتمنع يده من أن تمتد الى حقّها الطبيعي في مادة العيش، وتقبض عنه الأيدي أن تعطيه ذلك الحق.

في تلك المحنة الحازبة. كانت تصل اليه بلطائف الحيل هدايا الأولياء من الأموال والمساعدات، وكان يرفضها متذكراً الأيام الأخيرة لحياة أبيه حين غادر الدنيا ولم يترك في بيته شيئاً من زخرف الحياة حتى ما يكفي لعشاء أهل بيته في ذلك اليوم الذي رحل فيه.

ولأضرب لك مثلاً واحداً قد يغنيك عن الكثير من كلامي عن زهد هذا الإمام العظيم، ولأقم لك شاهداً واحداً يدلك على الكثير من أمثاله مما يرسم لك المنهج

الذي سار عليه ذلك الإمام في حياته، منهج العزوف عن الدنيا.

لقد أوصى له أحد معارفه (حال الموت) بشيء من ثلثه وكان (سيارة)، عسى أن تكون له بعد موته صدقة جارية حين يستعين بها الإمام على قطع المسافات التي تفصله بين بيته ودرسه، أو بيته وكربلاء ليالي الجمع، او بيته وكثير من المواضع الأخرى التي يقصدها يؤدي فيها حقوق الله أو حقوق اخوانه المؤمنين، وتدخل (السيارة) بيت الإمام دون أن يطرف لها طارف الحبور، أو يهيج لمرآها داعي البهجة يزيد من سروره، وينقص من غمّه، فلمطالب الدنيا هذه مثل هذا الأثر عند غيره لا عنده.

تدخل السيارة بيته، لتكفن فيه كما كفنت في نفسه تنتظر من يبذل لها حقّها من الثمن، ليتحول بعد ذلك الى الأيدي الخالية تملأ بها بطوناً ساغبة لدى الفقراء من تلامذته وسواهم، والى بعض هموم الجهاد ومواضع حاجاته، مع أنّ غيره من أكابر العلماء ملكوا (السيارة)، وأفادوا منها في شؤونهم، واستعانوا بها على قضاء حوائجهم. لكنها النفس العظيمة تستصغر أعراض الدنيا، ولكنه القلب الكبير يستهين بكل زخارف الحياة.

أهدى اليه أحد مريديه من الكويت عباءة نفيسة، وحين يعرضها عليه رسول مهديها يأخذها الصدر بيده ويعرضها على أحد الحاضرين في مجلسه ممن يبيع مثلها طالباً منه أن يقدّر ثمنها، وكم تعدل من مثل ما يلبس هو (الصدر) من عباءة.

فأجابه الرجل أنها ثمينة وتعدل الكثير من مثل عباءته، فعرض عليه الصدر الزاهد أن يعاوضها بذلك المقدار الذي يعتقد أنّها تعدله يسلّمه بيده الى المحتاجين من الطلاب.

وهكذا كانت سجية الترفع عن الدنيا حاجزاً للصدر عن لبس عباءة المترفين،

وكانت الأبوة الحانية والولاية الرؤوم قائدة له الى إيثار أبنائه وتلامذته على نفسه، وبذل ما في يده من أجلهم وما أيسر هذه القضية الرافعة ازاء قضية البيت الذي احب ثري من أوليائه ان يكرمه به فوجد الصدر النازه كرامته في ان يطلب من ذلك الوجيه المحسن ان يبذل المال في بناء شقق سكنية للطلبة المعوزين فهم أولى منه بذلك.

والصدر المدرك لحقيقة الحياة وسيرة الإنسان فيها، وما يستنزله منها من مواد الفتنة، وما يصلحه فيها من الاعتصام بذمام الخلق الرفيع، والزهد في أعراضها وزبرجها. هذا الصدر رأى أنّ التعلّق بالدنيا حتى الحلال منها هو مدعاة العظماء المتسامين الى الهبوط، ومزلّة ذوي الاستقامة، ومدحضة أهل الرشد والسداد، كأن حب الدنيا والصلاح نقيضان لا يجتمعان ... وعشقها وعشق الله ضدان لا يلتقيان.

ويقرأ الصدر في آخر أيامه في (مسجد الطوسي) سطور ملحمة صدرية تكشف عن عمق نظره الى الواقع، واستشرافه للمستقبل، ورؤيته الدقيقة التي تسبر صفحات الغيب، لتطلع منها بشيء من وقائع الآتي، حيث كمين حبّ الدنيا يترصد السائرين على درب الحياة مع النزعات والرغبات، فإذا به في غفلة منهم عن عصمة الترفع والزهد في ميعة ساهية، ترتخي فيها أيديهم عن زمام الحصانة، قد وقعوا في كبول الهوى السادر في المتاهات، فإذا بهم قد باعوا بالثمن البخس مجد انسانيتهم وسموّها، وخلود آخرتهم، وأنسها المتصل الممتد في مقعد الصدق.

لقد ذكّرهم الصدر بالدنيا التي عشقها هارون فغازلته وفتنته حتى اعطاها القياد، وذكّرهم بدنياهم التي هي مجموعة من الأوهام، حيث لا تعني الصلابة الظاهرة فيها حقيقة الاجتياز للامتحان العسير في سفساف الدنيا وزخرفها، وحذّرهم الصدر من اقبال الدنيا الفاتنة حيث يهتز الواهنون، وتخور قواهم التي لم يشذبوها من داء الدنيا، ولم يحرقوها بنار الزهد، لتخرج من مصهر تجلّدهم إزاء المطامع نقية كالتبر

خلّصه الاحراق من أشوابه.

لقد عرفهم الصدر الزاهد أنهم لم تعرض عليهم دنيا هارون الرشيد التي استزلته بخوادعها، ليعرفوا حقيقة الفاصل بينهم وبينه، حين تكون بهارج الدنيا هي المحكّ، ويكون بريقها المضلّ هو الابتلاء.

لقد قرأ الصدر من واقع التاريخ وهدي القرآن وحديث الهداة الميامين، أنّ الزهد في الدنيا هو الذمام المنجي، وأنّ طريقه المحفوفة بالمكاره يقهرها صبر العزائم المؤمنة هي السبيل الى الخلاص من فتنة الغي، وسوء العاقبة، وعذاب السعير، وإن الذين صبروا عنها ظفروا براحتها الحقيقية، وخلّدهم زهدهم لحناً على فم التاريخ.

أمّا الذين وهنوا فيها، واخلدوا الى فتنتها فقد احتبلتهم اسرى هواها، ثم رمتهم الى مهاوي السقوط أشقياء مخزيين.

ولا يكتفي الزاهد بتلاوة آيات الزهد من واقع رفيع متسامٍ هو واقع الأسوة الحسنة للصالحين، بل هو يتلو من آيات الوصية بتلك الخصلة العالية على مسامع حواريّيه وتلامذته الذين يرى فيهم الناس أنّهم أتباع القدوة المترفعة والقائد المتسامي، يحضّهم بها على سجيّة المترفعين، ويزجرهم عن دنيا المترفين.

وصلت الى بيته هدية مترفة (وسيلة من وسائل الزينة) من لبنان الى مُترفّهٍ من تلامذته ضلت الطريق الى مقصودها فاستقرت في بيت الصدر عند الباب تنتظر مجيء صاحبها اليها، وقطّب الصدر جبينه الكريم بعد أنْ إنقبض قلبه من رؤيتها، ولم تبق في بيته إلاّ أياماً كانت فيها كالثقل الجسيم يرزح تحته قلبه العظيم، وجسّد الصدر إمتعاضه وعتبه الغليظ على طالبها بأمره الحازم له أن ينقلها من بيته سريعاً، لأنّها أرمضته، وسلّطت على صدره سوط الأذى والتبريح.

التواضع

التواضع في حياة الإمام الشهيد قبس ساطع من ضياء الخلق القـرآني، وشـعلة وهاجة من نور التربية الإلهية العظيمة.

كان التواضع في حياته معلماً بارزاً من معالم شخصيته الفـذة اسـتقاه مـن روح الذكر الحكيم، واشتقه من آيات الكتاب المباركات، وقد وجدتـه مجموعـة آفاقـه الرحيبة المشرقة التي طلعت علينا بهـا حيـاة الإمـام القدسـية - في كلمـتين مـن القرآن: (**أذلة على المؤمنين**)، (**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**).

كان الذين يزورونه، ويستمعون اليه، ويتفهّمون منه، يعجبون أول ما يعجبـون بتواضعه، وخفض جناحه، وبشاشته، وإشراق محيّاه، وطيب لقائه، وبعد أن يَـردِوا نميره، وينهلوا منه ما يبلّ ظمأهم، ويطفـئ غلتـهم، ينقبلـون عنـه لـيروا منـه في صدورهم عنه مثل ما رأوا في ورودهم عليه. يقوم لهـم إذا أقبلـوا عليـه ببسـمة ساحرة، وبشر طافح، واقبال آسر، يأخذن بمجامع قلوبهم، ويطرن بنفوسهم شعاعاً في عالم الحيرة والذهول، وأشدهم تأثّراً من كانوا قد رأوا غـيره فـرأوا منـه أقـل القليل مما لا يبلغ معشار ما يرونه من الصدر، فإذا سأل سائلهم أدار طرفـه إليـه مصحوباً ببسمة وادعة، وأصغى إليه إصغاء سمحاً، حتى إذا أتم كلامـه راح يجيبـه

على قدر فهمه، لا برماً بسؤاله أنّى كان، ولا سئماً من الجواب عنه، فلا يخرج هذا من عنده إلا بقلب مأخوذ، وشعور مغلوب، وعاطفة مشبوبة مشدودة لهذا الإمام المتواضع. وتكون هذه الخلة من خلق هذا الإمام صيحة في أعماقه، تذكره بحقيقة دور التواضع في حياة القائد، وتنبهه الى القيادات الساقطة التي يراها من حوله قد بني بناؤها على التكبر، وقام كيانها على إحتقار الناس وإزدرائهم، والتعالي عليهم، والانصراف عنهم.

وهذا التواضع الذي قد يصح أن نسميه (التواضع القيادي) يصحبه تواضع مثله وعلى مستواه لأنّهما من معدن واحد هو (التواضع العلمي) فهو في دروسه وتأليفاته يفيض تواضعاً وسماحة، لا يذكر أساتذته إلاّ بأرفع النعوت مثل (سيدنا الاستاذ)، ولا يذكر آراءهم، ولو كان بطلانها لديه واضحاً، إلاّ بأحسن ما يريدون لها أن تذكر، ويعرضها كما يحبون لها أن تعرض، بل قد يعرضها ويؤّلها بوجوه حبيبة لم يقصدوها، ثم يتصدى لها بعد ذلك ينفي عنها وجه الصواب بأدب جم، وخلق عظيم، بل إنّ تواضعه لروح الفكر يجعله يتواضع لكل فكرة مهما كانت غير صحيحة عنده، ويبديها، إذا أراد نقدها بخير وجوهها، ويبرزها على خير محاسنها ومزاياها، وقد يمتدحها في أثناء حديثه عنها كما في عرضه (للماركسية)، ثم ينحدر بها بتوأدة وأناة وسماحة بالغة ليوصلها الى قاع البطلان، ثم ينصرف عنها كما أقبل عليها..

وفي ساحة درسه كان تواضعه العلمي للأفكار التي يعرضها لأستاذه وسواه من العلماء، وتواضعه لتلاميذه شيئاً عجباً.

كان ينصت لكل إشكال يطرحه تلامذته، ويردّه ولو كان خارجاً عن روح بحثه، ولا يردّ أحداً منهم يناقشه رداً قاسياً، ولا يشتطّ في جوابه، ولا يغلظ عليه حتى ولو أساء ملاددته ومعارضته.

وإن أنس فلن أنسى مشهداً علوياً أطلّت علينا به روح التواضع عنده، ودليله الى سواها من الكثير الوفير من ألوان تواضعه وخفض جناحه ـ ذلك هو انحناؤه وهو الذي انحنى له أعزّ الرؤوس، ولثم أنامله أعزّ الشفاه على أيدي اساتذته يقبلها، ليكون ذلك آية اخرى يتنزل بها من علياء الخلق الرفيع وحي التواضع تبهر باشراقها انظار المبصرين، وتذهب بقلوبهم كل مذهب في دنيا الحيرة والاعجاب.

لقد كان تواضعه فريداً ولا بِدْعَ أن يكون كذلك فهو شنجة إشتقت من الخلق الإلهي الذي ترشّفه الإمام من كأس القرآن الروية، ففاض في انجائه يغمرها، وتشمم عرفه العابق من روضه الفيّاح فانساب ذاك الشميم في مشاعره يعطّرها.

كلمتان في القرآن كانتا مجموع ما عند الإمام الشهيد من المدى الفسيح الواسع من سجية التواضع، خفض جناحه للاتباع وهو التواضع (القيادي)، والذلة على المؤمنين وهو التواضع (للأقران) ومن دونهم، وأول ألوانه في حياته هو تواضعه العلمي لأساتذته وتلاميذه.

وقد ينصرف عن بالي كل شيء من خلق التواضع عند الإمام لكنّه لن ينصرف ذلك اللون الذي لم أسمع به من قبل أن أجده عند إمامنا الشهيد، هو تواضعه الكبير للمرأة المؤمنة التي كان يحبها، ويحترمها، ويوصي بها، ويجدها في نفسه في الذروة العالية، وقد يشاركه في هذا سواه، أمّا ما لم أجد أنا من يشاركه فيه فهو قيامه للمرأة إذا دخلت عليه، وقيامه لها إذا انصرفت عنه تماماً كما يفعل مع إخوانها الرجال المؤمنين.

حدثت السيدة أم تقى قائلة: ـ دخلت عليه أزوره مع احدى أخواتي المؤمنات بعد خروجه من المعتقل قبل اعتقاله اليتيم، فاستقبلنا بمحضر والدته واخته قائماً لنا على هيئته التي يصفونه بها عند استقباله للرجال، وبعد أن حدّثنا حديث قلبه

وروحه وآن لنا أن ننصرف عنه قام لنا، وبقي قائماً حتى انصرفنا عنه بعقلين مأخوذين كأنّما ضلاّ سجيّة التعقّل، وقلبين دهشين كأنما كانا في مشهد مهيب، وتنطلق صاحبتي بعد هذا الموقف تقرأ سطور صفحته الشريفة على مسامع الملأ ممن لا تعرفهم يقدّرون المرأة ويكبرونها في أنفسهم، وتقول لهم (إنه الصدر العظيم يحترم المرأة الى الحد الذي يقيمه لها إذا أقبلت عليه وإذا انصرفت عنه فأنّى تؤفكون).

كان (رض) قليلاً ما يجيب دعوة الحضور ببركته في أفراح الزواج ليقلل من شأن الاهتمام بها، ويوحي وحياً صامتاً بعدم الافراط فيها، أو الخروج بها عن مرغوب الاسلام ومطلوبه.

أمّا حين يدعوه خادمه لمثل هذا الأمر فإنه يستجيب لا ليقضي بعض الوقت هناك كما يفعل في النادر من حضوره في هذا الأمر ساعة او دونها بل هو اليوم يمكث حتى يتعشى، ليملأ نفس أخيه المؤمن بالغبطة والسعادة، ثم ينصرف عنه بخالص الدعاء وصادق الرجاء.

إنّه التواضع القرآني الصادق الجامع، كان صادقاً فلم تكذّبه الأيام والمشاهد، وكان جامعاً فلم تفته حالة او حالات فاتت غيره، وكان أول ما فتح له باب القداسة في النفوس هو هذا الخلق الكريم، فما رأيت امرءاً رآه واجتمع به لا يذكر له سجية التواضع، ولا يمجده بها، ويطريه لها اطراءً لم يفتح فمه به لأحد غيره من قبل، معتبراً ذلك المهم من سجايا الإمامة الحقة، والطليعة من شمائل القيادة الرائدة.

الحلم

إذا كان الحلم أن تعفو عمن ظلمك، ولا تغضب على من أساء أليك، فهذا أمر كان له في الحياة الخلقية للإمام الشهيد وجود زاهر، وحضور باهر، فلقد كان مما حبا الله به شهيدنا الكبير مما يختص به العظماء من عباده (الظلامة).

فعاش رضوان الله عليه مظلوماً، لم يأمن قلبه الوادع البريء غائلة العدوان عليه، ولم تنج ساحته الطاهرة المقدسة من سطوات الظلم الفادح، ولم يسلم خاطره المبارك مما يكدّر صفوه ويرمضه من حراب الحاقدين وسهام الواجدين، وكان يرحمه الله مع كل ذلك الاعتداء مصداق قول الشاعر في وصف الأئمة الهداة وذكر سجاياهم.

إذا وُتِروا مدوا الى أهل وِتْرِهم — أكفّاً عن الأوتار منقبضات

ولعل مثالاً واحداً من حياته البهية يكشف عن هذه السجية، فلقد مرت على الإمام الشهيد مرحلتان من الظلم في نطاق الحوزة العلمية في النجف وخارجها، سببهما الجهل أو العناد في الأولى، والغضب والانفعال في الثانية.

لقد صبّت عليه سحائب العداء وابلها أيام بزوغ فجره وتألق أنواره من الجاهلين الذين لا يفهمون الإسلام على واقعه، أو لا يريدون أن يفهموه على ذلك، فصعقهم ما طلع به الشهيد من حقيقة الإسلام الجديدة، وما يدعو إليه من ريادة الإسلام، وحاكمية القرآن، ومقاومة الطاغوت، وعودة الحكم الى أهله الحقيقيين، فأزبدوا وأرعدوا، ونجمت ناجمة غيظهم وبغضائهم، وائتلف على الإمام الشهيد منهم موج الكراهية من كل صوب، فإذا هو سيل هادر واجهه بقلب همام كالطود راسخاً لا يتزعزع، أشمّ لا ينحني ولا يلين، وظل هو معهم كالشمس لا تعبأ بالسحاب يتكثف من حولها ليحجبها.

(وطفقت مسيرة النور التي نابذوه عليها تهدي عاشيات النفوس والأفكار، لا يضيرها صياح الدياجي ولا المدلجين، فلا تضعف، ولا تتنكّب، ولا تداجي، ولا تداهن، حتى هدت حقيقتها الدامغة جمحات العداء، وأسر وضوحها وصدقها عناد الجاهلين، فسجدوا خشّعاً لقوة الحق القاهرة، وأنابوا مذعنين أمام سطوة الحقيقة الباهرة، فشملتهم السماحة الصدرية الواسعة، وعمّهم العفو من ذي خلّة ربانية، هي أنّه سريع الى العفو والرضى، حافد الى الحلم والغفران).

ثم جاءت مرحلة كان أصل العداء فيها للإمام الشهيد الغضب والانفعال من أناس يعرفونه ولا يجهلونه، وكانوا قبلها يحبونه ولا يكرهونه، فلما خالفهم الى ما لا يشتهون أعنقت منهم نحوه عادية السب والتوهين، وجبهته قوارع السوء، ونطقت ألسنة السخط بالانتقاص، فاشتجرت عليه رماح الإيذاء، وتعانقت حوله

أسنـّة التبريح.

وكان الإمام هنا على شأنه مع كل الظلم الذي يقع عليه، والحيف الذي يلحق به، حلماً واسعاً، وعفواً شاملاً، وصفحاً جميلاً.

واعجب إذا شئت من حلمه حين يدخل عليه أحد تلامذته صنعة تلك المرحلة المزبورة، ليسمعه بذيء القول في ذمّه، وقبيح الكلام في إنتقاصه والحطّ من قدره، فيصغي الإمام له ويصمت على بسمة ذابلة تداعب شفتيه، ثم يرفع طرفه الوادع الى شاتمه ليدعو له ولأخوانه من ورائه بالرشد والصلاح، ومعْرفة السداد والصواب.

فلم يزعق فيه لسوء أدبه الجاهر، ولم يغضب عليه لجرأته الفاضحة، ولم يسمعه كلمة رادعة وقد سمع منه فظيعاً، ولم تنبس شفتاه الطاهرتان بغير الدعاء له ولمن دفعوه لذلك الأمر، وينقلب عنه تلميذه بالصفح والستر كأنْ لم يكن قد بدر منه ما بدر.

بلغ سمعه الشريف إنّ أحد العلماء إبن احد المراجع الكبار يقصده بسهام السوء، ويرمي ساحته الطاهرة بها من حسد حانق ظالم، ولا يكتفي الحلم الصدري في هذا الأمر بالسكوت والإغضاء، بل يدفعه حلمه الرفيع وحكمته المتعالية الى أرفع المواقف وأسماها، فيوصي واحداً من تلاميذه ممن لهم علاقة بحاسده أن يتلطّف في إشعاره بأنّ الصدر يحبه ويذكره بخير، عسى أن يكون ذلك عوناً على قطع لسانه، وقمع غائلة فتنةٍ يريد إثارتها في وسط الحوزة وحصنها

المنيع (المرجعية)، لاضعاف الخط الأصيل فيها، وتوهين رائده الفذّ.

وتبلغ الحكمة الصدرية غايتها، وتحقق هدفها في إصلاح ذات البين في الحوزة وهو أعظم الاصلاح.

ما أعجب شأنه في حلمه حين يُطلّ من النافذة على آسريه في بيته عند الحصار فيراهم في حرّ الهجير قد أحزبهم الظمأ الشديد، فلا يملك نفسه من التأثر العميق لتنهد من أعماق صدره الطاهر الآهات اللاّهبة لهؤلاء المساكين الذين يعانون في أطواق ظلمهم مثلما يعاني مظلومهم، ولهم بعد ذلك جزاء الظالمين، وعذاب المجرمين.

ويرق لهم الصدر الرحيم، ويأمر باعطائهم الماء البارد إغاثة لهم، وتعريفاً بالخلق الإسلامي الرفيع، ونبل ذوي الفضائل العالية، وأنّ من يحاصرونه ليس إلا الأب الرؤوف، والقائد العطوف، والإنسان المتعالي على دواعي النفوس، واضغان الصدور، والمجازاة بالمثل، شأن أجداده الطاهرين.

وينقل له ثقاته إن أحد تلاميذه انحرف عن خطّه، وراح يتجنى عليه، ويظلمه، ويقذع له في السب والقدح، وكان الناقل يظنّ أنّ الصدر سوف تبدر منه الحسرة والآهة والتظلم والدعاء على ظالمه، لكن الذي طفح به معدنه الكريم هو مقالة التقي الحليم (إنني مازلت أعتقد بعدالة هذا الشيخ، وإنّ ما يصدر منه ضدي ناشئ من خطأ في اعتقاده، وليس من عدم مبالاته بالدين) فمن هو غير الصدر حين يجد لعداوة كارهيه ونابزيه باللقب السيئ ـ محملاً في الخير يحملها عليه، ويوجهها

وجهة الخير، وإن بدت كريهة مؤذيه؟

دخل عليه أحد تلاميذه مودعاً له عند إرادة (تسفيره) وكان هذا التلميذ ممن لفّهم تيار الحقد على خط الصدر المظلوم فبدا منه ما بدا من التجنّي والعدوان، وقد أراد بالوداع أن يتوب الى الصدر مما كان منه ليهبه إيّاه فيظفر بالنجاة من وزر الظلم لاستاذه.

فماذا وجد ذلك التلميذ المتجنّي عند استاذه المظلوم؟ لقد وجد ذلك التلميذ صدراً رحباً وسع سقطات المتجنين، وامتدّ حتى حوى الفضاء الفسْيح للصفح والستر، فلم يعد فيه شيء من نقمة الناقمين، أو غضب الذين يثأرون لأنفسهم من ظالميهم بالسطوات أو بالاعراض، لقد ضمّه الصدر اليه، واعتنقه باكياً تنهمر دموعه أسىً وحسرة لهذا الذي جاءه معتذراً مودعاً وقد بدت عليه علائم الانكسار للندم، ومظهر الأذى لما يحل به من أمر (التسفير) والإبعاد عن النجف.

واعجب له حين يقدح فيه وفي أهل بيته قادح ممن يُحسَبون من مريديه، ويسمع عنه فيه وفيهم كلاماً غير ذي سداد ولا رأفة، يثير الحفيظة، ويؤجّج سعار الغيظ، ويتأبّى الإمام الحليم أن يكتفي بالسكوت الغامر الساتر، فتنقله أقدام الحلم العجيب الى شاتمه يعوده في دائه يدعو له بالشفاء، ويرجو له سرعة البلول من علته.

وليس يفوتني أن أذكر أنّ الحلم الصدري الكبير قد تعدى طوره المألوف منه، وهو طور بعيد ليرقى الى طور عجيب، هو حلمه عن عبيد الطاغوت الذين

أساؤوا اليه، وآذوه، وكبّلوا معصميه بالأصفاد، فحين يقفون ازاءه بعد اعتقاله البكر قبل أن يغادر سجنهم واغلالهم معتذرين كذباً ورياءً، يقولها هو حقاً وصـدقاً: (إذا أخطأ الأبناء فعقوا وقصّروا، فعلى الآباء أن يصفحوا ويغفروا).

الوفاء والاخلاص

أضاءت حياة الإمام الشهيد بسجاياها النبوية الزاهرة، وأشرقت بشمائلها القرآنية الزكية، فكانت حياة مثالية تتلألأ كالشمس في الأفق، بعيدة بعيدة لعلوّها وتساميها، قريبة قريبة بضيائها وعطائها، يستنير بها الخابطون في الديماس، ويتأسى بها من يرجون الله، ويقتدي بها من يرومون ذرى العلياء، ونيل السماء.

لقد كانت المحامد الشخصية والفضائل الخلقية لإمامنا الشهيد كأفراس رهان يتنافسن في المضمار، ويتبارين في ساحة المغالبة، كلّ تطلب فلجها، وكل تطمح جاهدة أن تكون هي الظافرة، لكنهن بلغن الغاية في وقت واحد، فكانت السبقة لهنّ جميعاً والجائزة بينهن سواء.

إذا نظرت اليه من وجه فضيلة واحدة رأيتها وكأنّها يتيمة الدهر عزّت على الند والنظير، فإذا نظرت الى أختها ألفيتها وكأنها الأعز الأبعد، وهكذا حتى يأخذك الأعياء، ويرتدّ طرفك حسيراً، لتعرف إنّ خصاله في الحسن والبهاء سيان، وإنّ فضائله في السمو والاشراق على حدٍّ واحد.

هذا هو الصدر في أعظم خصلة إنسانية، وأسمى فضيلة بشرية، تلك الوفاء

والاخلاص، وهي سجية أحسبها كانت في الأصل ملائكية ثم أباحها الله لعباده، وأذن لهم أن يتصفوا بها إذا شاؤوا كمالهم، وأن يتحلّوا بها إذا راموا أن يبلغوا غاية جلالهم وعظمتهم، وقليل ما هم أولئك الذين قدروها حق قدرها، فطاروا على جناحيها الى مصافّ الملائكة، وكثير هم أولئك الذين أخلدوا الى الأرض بتركها فلم يرتفعوا عن مواطئهم شبراً.

لقد وعى الإمام الشهيد حقيقة الوفاء والاخلاص من عشقه الإلهي، وتعلمها ودرب عليها في رحاب هذا العشق الفريد.

لقد عرف ربّه فأحبّه وأخلص له غاية الإخلاص ووفى له كل الوفاء، فما غدر بطاعته تاركاً لها، أو مقصراً فيها، ولا تلون له في مسيرته، ولا اتخذ الأنداد من الأهواء والرغبات يحبها مع هواه ورغبته أو من دونهما، ولا ضعفت به نفسه الوفية الصادقة عن تقحم كل الصعاب، وتحمل كل الأتعاب طلباً لرضى من آثره بالحب على سواه، وزلفة الى من عشقه دون ما عداه.

وما فتئ هذا دأبه وفياً مخلصاً حتى بلغ به إبتلاء حبيبه له في خصيصتي وفائه واخلاصه الى الحد الذي طالما خار عنده الصدق في الإخلاص المكذوب، وهوّمت سكرى عنده عزيمة الوفاء المزعوم. إنه الوقوف على شفير المنية قد كشرت عن أنيابها فيه مكربة القتل الفظيع، وحازبة الموت المريع، بأسياف الجلاّدين، وبواتر الحاقدين.

وبقي الصدر ازاء الشفير وفياً فلم يخسْ أو ينكل، مخلصاً فلم يكذب في محبته او عشقه، وهوى صريع المحبة يزينها الوفاء الوتر، قتيل العشق ينير أرجاءه

الاخلاص الفرد.

وكان الوفي المخلص مع ربه وفياً مخلصاً مع عباده، وكان وفياً مخلصاً مع علمه، فأتقنه وحققه وصفّاه، ثم وهبه وأعطاه.

كان وفياً مخلصاً مع تلامذته وأبنائه فصدَقَهم فيما أعطاهم، وأخلص لهم في عطائه، ومحض لهم النصح لم يكذبهم فيه، وكان وفياً مخلصاً مع أمّته التي أعطته قيادها وائتمنته على مصيرها، فتحمّل لها ما تتدكدك له الجبال من الخطوب، ويذوب له الصخر الأصم من لظى الشجو والشجن، وقال كلمته الخالدة: (إني أؤكد لك يا شعب آبائي وأجدادي أنّي معك وفي أعماقك، ولن أتخلى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله ومن أجلك. أنا أعلن لكم يا أبنائي إنّي صممت على الشهادة، ولعل هذا آخر ما تسمعونه منّي، وإنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر).

الإمام وأهل بيته

كان في بيت الإمام الشهيد ممن هم عليه حقّ الرعاية والعناية، وله على جلّهم حق الاشراف والولاية ـ أمّه وأخته وزوجه وأولاده.

وكانت له معهم مسيرة فريدة من السلوك، ومنهج لا يماثل من الهدى والرشاد، وطور عجيب من المحبة والحرص والوفاء.

كانت أمّه تنعم منه بفيض برّ واصب النبع، وتهنأ منه بدفء حب واجلال لا يعتوره فتور، كان يغدف عليها ظل الاحترام البالغ فيقر عينها، ويكثف حولها ألوان الخضوع والبخوع وخفض الجناح فيثلج صدرها، ويمتلئ قلبها بمعاني الحب له، والاعجاب بخلاله السامية، فينهلُّ فمها بكلمات الحمد والثناء والشكر لربّ وهبها إياه، وحفظه لها لتوالي العمر وبقية المدة المكتوبة لها دون من فارقتهم من عديد ولدها وبنيها، كأنّه سبحانه قد إستخلص لها حبيبه ليكون حبيبها، وصفيّه ليكون صفيّها، والحريص على حقه ليكون حريصاً على حقها، والوفي له ليكون وفياً لها.

كان رضوان الله عليه مع أمه (البتول) على سجية من جدّه المصطفى مع زهرائه، إذا دخل البيت كانت أول من يقصده بالسلام والتحية، يدخل عليها

لينحني على يدها يقبلها، ثم يتفقد شؤونها، ويستخبرها حالها، ولا ينسى إذا انصرف من البيت أن يمرّ بها يقبّل يدها ويودّعها، ويسألها دعاء الأم الرؤوم، فتسأله هي بدورها دعاء الولد الشفيق، كان يقوم بتكريمها واجلالها كما يقوم بفرضه وطاعته، ويدأب في اسعادها وارضائها دأبه في ارضاء خالقه، وكان ينصب لراحتهاودعتها نصباً يراه بعضاً من حق الشكر المفروض، ونزراً من فنون الاحسان اللازم.

لا تقرّ له عين حتى تقر عينها، ولا يهدأ له قلب حتى يهدأ قلبها، ولا يطمئنّ له بال حتى يطمئن بالها، وكان هو في قلبها عين ذلك الدم المتدفق منه في عروقها، وعين تلك النبضات التي تشيع فيها الحياة. كان في نفسها مقاماً شامخاً قد عانق السماء فهي شاخصة الطرف اليه تعجب له وبه. كان هو عندها كقلبها النابض لا تعرف طعم العيش دونه.

ومن البرهان على هذا تلك الحال التي صارت اليها عندما جاءت كُبول الطغاة وقيودهم لتصفد المعصمين الطاهرين لولدها الإمام في اعتقاله قبل الأخير، فقد صعقت لهول ما سمعت، وكادت تندك لفرط ما أحسّت للنبأ في اذنيها من دوي هائل، وفي قلبها من فورة واستعار، لقد قامت بحال الأسيف الأسيان، مرتبكة الخطى، واهنة الأعضاء، مهزوزة الانحاء، لتقف عند الباب طالبة من أذناب الشيطان أن تصفّد هي في الأغلال أيضاً كفلذة كبدها، وأن تجرّ الى السجن معه، فلا تريد لفرعها أن يفارق أصله، ولا لقلبها أن يغادر موضعه في بدنها، وراحت تلح بصوت متصل ضئيل، شاحب هزيل، هدّه الحزن والألم، لكنهم لم يصغوا اليها، وانطلقوا بضالتهم وافرين.

كان كثير من السوء الذي يعرض للإمام يكتم عنها، ويصرف وجهه الكريم عن وجهها، وتطرد غلواؤه وبأساؤه عن ساحة قلبها الكليل، فلا تسمع إلاّ حالاً طيبة تحسها روضة غناء، فوّاحة الشذى، أخّاذة السحر، قد احاطت بها من كل صوب تملأ دنياها بهجة وانشراحاً، وتغمر وجودها بشاشة وارتياحاً.

كان دعاؤها أن يقرّ الله عينها بالبقية من الذاهبين، وبالتالي من المتقدمين (بالصدر واخته). وأن تغمض عينها مستسلمة للموت بين أيديهما يدعوان لها، ويترحمان عليها، فلا ترى بعد ذلك صرف الموت المكرب بموتهما، ولا عادية المنون الفادحة تغمض عيونهما عنها، وترحل بهما قبلها الى ديار الأبد.

واجيب لها صدر دعائها دون تاليه، لترى إن الله قد رؤف بها رأفة لم تتصورها قط. واعطاها ما لم يخطر لها ببال لتسأل ربّها إياه، لقد أقرّ الله عينها بولديها كأحسن ما تقر عين أم بولد، أقرّها بهما حيين يتسربلان لباس العزة والكبرياء، ويستويان على عرش المجد والعلاء، ثم أقرّ عينها بهما شهيدين قد رفعا الى السماء، تحف بهما ملائكة الرحمن الى بحبوحة الرضوان.

وكان الإمام الشهيد مع زوجه على الحال التي مضى بعضها في سطور سالفات. كان يتقرب الى ربه بكل حقوقها يؤديها اليها كاملة غير منقوصة، فلا تجد عنده إلاّ قلباً محباً وفياً ما اعترى مسيرة حبه ووفائه لها نصب أو كلال، ونفساً دافئة ناعمة ما ساورها في هذا الشأن ضعف ولا انقطاع، كانت حاضرة في نفسه على كثرة مشاغله عنها، شاخصة فيها هيكل حبّ واعظام له، ودأب وعناء في سبيله، فلا تعزب عن روحه وإن عزبت عن عينه، ولا تنصرف عن شعوره وإن انصرف عنها وجهه الى شؤونه الوافرة.

وكان يرضيه ويؤنسه أنّه يحس لديها في كثير انشغاله عنها بهموم قضيته وجهاده رضىً عز له النظير، وسروراً قد فاق كل سرور. لقد أدبها بأدبه، وأضاء روحها بضياء روحه، وصفّى شعورها بصفاء شعوره، وهذا اعظم حقها عليه، فانقلبت منه موفورة بنعمة الأدب الوافر، والخلق الرضيِّ، والعقل الرصين، والتعلق بالله واللهوف الى رضاه.

وأماهي فقد فرشت له قلباً رقيقاً ناعماً، تمحّض حباً ولهفة، وتجرّد ولاءً ووفاءً، واحضنت على وجوده المبارك بنفس رفيقة، تجهد في أن تملأ عيشه بالأنس الذي كان ينشده في السكن اليها، وأن تصرف عنه او تشاركه الغموم التي أرادها عوناً عليها، وشريكاً فيها.

كان لها قلب يخفق توجساً عليه من غِيَرِ الزمان، وخشية من طوارق الحدثان، وكان لها دمعة مسفوحة خشوعاً لقدس شخصه وجلاله، أو حزناً لما يلم به من سوء حاله، وكانت لها روح قد تعلّقت به حباً وإشفاقاً، وانقطعت اليه ولاءً وإرفاقاً، تؤدي اليه في ذلك فرضاً يلزمها به العقل والدين والقلب، وهيهات منها ثم هيهات أن تريه حالاً تسوؤه، أو تظهر له بوجه يكرهه، أو تطرق سمعه بكلمة خشناء، أو تسمعه عن حالها او حال صغارها ما يؤذيه، دائبة في كتمان مكروهه، جاهدة في اظهار محبوبه، عاقدة عزمها على أن لا يرى زوجها الإمام ما لا يرضيه، وألاّ يسمع ما يشجيه.

أمّا الإمام الشهيد مع أخته، فقد جسّد أمراً فريداً في الإخاء، ومعلماً جديداً من معالم الارتباط الأخوي المتين.

كانت أخته عنده كنفسه لأنّهما من منبع واحد، وكانت لديه كعضو فيه

فلحمهما سواء، وقد وشجت بينهما آصرة الدين والدم، ووصلت بينهما رابطة الروح والرحم، وعظّمت كلاً في نفس الآخر فروض العقل والإسلام، وحقوق الإجلال والإكرام، فقد أحبّها بحب الله وحب قلبه، ورعاها لأمر الله وأمر العلقة.

قد عني بها وأكثر من الاعتناء لأنه الفاها أهلاً لجسيمات الأمور وجلائل الأحداث، كان حريصاً على أن يقرّبها من ربّها، ويشدها الى خالقها، ويفقهها في دينها، ويعلمها معالم شريعتها، ويؤهلها لخدمة رسالتها وامّتها، وأداء دورها ووظيفتها، فبلغ في ذلك حدّاً تشهد له الأمور الواضحة، والحقائق اللائحة، بأنه فرد بلا نظير، ووتر بلا شفع، لقد صرفها بما عرّفها عن كل شيء سوى ربّها، وعرّج بها عن كل شيء عداه اليه، فانقطعت اليه انقطاعه، وارتبطت به ارتباطه، حتى نسيت لذلك أهم شيء في جبلتها من التطلع الى قرين الحياة، وشريك العمر، وتقليب النظر في أمر الزوج الذي هو في حياة سواها أمرٌ لا ريب فيه، ولا محيد عنه، فلم يجد شأن البيت والقرين المرفوضين في قلبها حظّاً من مكان يشغل به مكان الفكرة بالله ودينه، ولم يأخذ أمر الزواج نصيبه من نفسها ووقتها فينقص برأيها نصيب ربّها ورسالتها.

انصرفت عن بهجة الحياة العاجلة الى البهجة الآجلة، ورفضت زهرتها القريبة وشؤونها الرغيبة، رغبة في الخلود المجيد، والأبد السعيد، ومقعد الصدق الذي أدخره الله لأوليائه، وأضمره لأصفيائه.

كان يصطفي لها من بنات أفكاره في تفهيمها ما ترقى به محلّها معلمة مرشدة، ويحتبيها بطرائف التهذيب في تقويمها على استقامتها، لتبلغ درجتها هادية وقدوة.

كان يلاحظها في صغير أمورها وكبيرها، يدلها على مواضع الصواب في أفعالها،

ويأخذ بيدها الى مواطن السداد في أقوالها، ويبذل لها من وقته قارئاً لما تكتب وتنظم، ناظراً فيما يخطه يراعها الميمون محبوراً به، منشرح الصدر له، حريصاً على تهذيبه من الشوب، وتزكيته من العيب، وقليل ماهما.

كان أكثر ذهابها واياها على عينه، وصنعة رأيه، واكثر ما تقرأ وتكتب لطف إشارته واختياره، ولم يعتم معها أباً رؤوفاً شفيقاً حريصاً، وإن كان لا ينسى أنه أخوها الذي لا يربو عليها بمزيد من السنين، وكانت لا تفتأ معه كالبنت إزاء أبيها تجله، وتعظمه، وتسمع له في اكبار وطمع، وتفهم منه في توقير وحرص، وتأخذ عنه علمه في اعجاب وشغف، وتنسى أنه وليد أمٍ انجبتها، ورضيع لبن غذّاها.

كانت تحس له بهيبة في نفسها تذودها عن مخالفته حتى في موارد الشك بخلافه وإبائه، فلا تقدم او تحجم الا مستنيرة بهداه، حتى لا تخالف عن رأيه ومشتهاه.

وكانت تحسّ له بعين رقيبة عليها قد صحبتها كظلّها، فلا تنهض بها جناح على الوقوع فيما لا يرضاه، فعينه التي لازمتها تراه، كانت تعلم أنّها في عيون الناس تحكي أخاها فلا عجب أن نراها تصون نفسها عن المناقص صوناً، وتحجزها عن الصغائر، حجزاً، وتصدّها عن سوى المعالي والمكرمات صدّاً، أداءً لبعض رسالتها، وحفظاً لكرامة الأخ الاستاذ بعد كرامتها.

وحين يحس منها أخوها رقيّها في مدارج السمو تطلبه حثيثة، وصَعْدها في معارج الكمال تبتغيه مشوقة، وهبها ما لم يهبه لغيرها من النساء، فكانت وكيلاً له تفصل في كثير من الأمور كما ترى، وتفعل بفروض المال كما تستصوب. وكانت كما ارادها مثالاً يحتذى، وقدوة تقتدى، ومناراً يستضاء، وأضحت كما كان يرجو لها شيئاً فريداً في دنيا المرأة، ينحدر عنها سيل الهدى والرشاد، ولا يرقى اليها

طائر الطموح والطلب.

وكانت بنت الهدى حقاً، نشأت في أحضانه الطهور، ورضعت من اثداء النور.

وهلم اليك الأمر الكبير الذي أنجبته التربية المباركة للإمام الشهيد في فرد واحد منها هو تربيته لأهل بيته، وأثر وجوده الشريف في عياله وأهله، فحيث اجتمع في بيته أمّه وأخته وزوجه لم تجد في هذا البيت الكريم إسماً ولا رسماً لما يقال له في غيره من البيوت خلاف ونزاع وبغضاء وكراهية، بل كان بيتاً كقلوب ساكنيه يغمره الاخاء والصفاء، وتزينه المحبة والوداد.

إذا غابت احدى الثلاث الطيبات قالت الباقيتان: ما أوحش البيت! ولا تلبثان مستوحشتين حتى تعود ثالثتهما الى مكانهما، وإذا نأت عنه اثنتان، بقيت الأخيرة تعاني الغربة والوحدة حتى ترجع إليها صاحبتاها.

وكان الإمام الشهيد رضوان الله عليه مع أبنائه الأقربين على شأنه مع أبنائه الأبعدين، وإن كان هؤلاء أوفر حظاً به، واشد قرباً منه، وأكثر وروداً على نبعه، وارتشافاً من نميره السلسبيل، فقد آثرهم غاية الإيثار، وحباهم عظيم الحبوة، وافرغ لهم نفسه ووقته تاركاً كثيراً من شأن صغاره على كبير حبه لهم واشفاقه عليهم، لمن رباهم وائتمنهم على تربية غيرهم من أهله، فزوجه واخته أشدّ لصوقاً بهم وقرباً منهم، فكانوا يجدون منهما عيناً رامقة لا تغمض سهراً على راحتهم وتهذيبهم، وقلباً لهيفاً موّار الحرص على سلامة أجسامهم وعقولهم، بالغ الرغبة في أن يتعلّموا حقائق الهدى على الصغر، ويتبينوا معالم الصلاح على الحداثة، فيألفوا طريق السداد كما يألفون الزاد، وتتغذّى بأنواره عقولهم ونفوسهم كما تتغذّى أبدانهم، فإذا به يشب معهم كما تشب أعضاؤهم، وييفع معهم كما تيفع أجسامهم.

وكان لهم من أبيهم، على فرط مشاغله وعظم شؤونه، جزء من وقته يصيبون فيه حظّهم من حنان الأبوة وألطافها، ونصيبهم من تقويمها وتسديدها، حتى لقد كان يدخل معهم في صغائر أمورهم من دروسهم وشؤونهم فيما بينهم، بل حتى في ترتيب لُعَبِ فكرية لهم تقوى بها حلومهم، وتنمو بها عقولهم.

وكان أمراً عجيباً لم أسمع به من ذي قبل عن أحد غيره، أن يوصي الإمام الشهيد زوجه أن تلزم جانب الشدة مع أبنائها، تحاسبهم بحزم وجزم، وتدير شؤونهم بقوة وعزم، ليسلك هو جادّة الرفق واللين، لا يغلظ عليهم، ولا يقسو معهم، كأنّه (رض) يرى أنها بهم ألصق، وهم إليها أقرب، وجل امرهم موكول اليها، معوّل به عليها، فلا يزكو بغير الشدة يمازجها اللين، ولا يصفو بغير الزجر يرافقه التبيين، ثم أنّهم إليها أحب، وهي بهم أرأف، والى رغباتهم أسرع، فحري أن تكسر حدّة الحب بشيء من القسوة حتى لا يبتلي بمصيبة الاذعان لرغبة المحبوب، ولا يناله داء التسليم لأهوائه.

ولعله كان يعلم أنّه سيسبق زوجه في الأوبة الى ربّه فتبقى هي لهم تتحمل كل العبء المفروض لهم من التفهم والتهذيب والتقويم، فلتستعد لهذا الأمر الجسيم قبل أوانه، وليجدوا فيها أمّاً حازمة يهابونها ويكبرونها، حتى إذا بقيت معهم دون أبيهم كان لها بما في نفوسهم من مهابتها قوّة تعينها على تدبير شؤونهم، لا يخالفونها ولا يعصونها، فقد كانت لها معهم تلك السجية الأبوية التي وهبها لها أبوهم لتكون بها معهم أمّاً عطوفاً كالأب الحازم، يذوقون منها طعم الأمومة الناعمة، ويجدون عندها اقتدار الأبوة المدبّرة.

الرفض والإباء

في الأتون المتلظي للطغيان، والخضم المتلاطم للجور، والهزاهز الغضاب للظلم ... مظاهر جاهلية جديدة في العراق الأسير المهتضم، موتورة تتميّز غيظاً، تطلب تراتِها القديمة من الاسلام العظيم، إسمها (البعث)، وليست تعني غير بعث الضلالات الدفينة، والحماقات المقبورة، والغوايات الذاهبة، والطاغوت الجاهلي المدحور بكل ألوانه وفنونه، ليقبع على أرض الرافدين بكلكله الرهيب وثقلة الفادح، ويخيّم عليها بجحيمه المستعرة، وظلامه المطبق الخانق، قد كمّت الأفواه بالسجون والوعيد فلا كلمة رفض تقال، وكبّلت الأيدي بالحديد والتهديد، فلا يد تمتد ساخطة تشير الى الباطل، فضلاً عن أن تسطو به، وشلّت الأقلام والافهام بالمنع والترهيب فلا بارقة من رفض، ولا قبسة من إباء.

الأجواء ثقيلة مرمضة، والآفاق سود متدجية، والأيام تمر رتيبة على لون واحد من العناء والبلاء، قد أميط اللثام عن الحسام يهريق الدماء، وكشرت أنياب الذئب الكاسر تنهش في لحوم الأبرياء، وشبّت نار العذاب الأليم تعبث بالمؤمنين في لهواتها، وهيمن على هذه الحياة الجهنمية صمت رهيب كأنّه صمت القبور.

في ذلك الظلم والخوف والصمت دوّى صوت كأنه الرعد (تعساً لكم أيّها

الظالمون)، وانطلقت صيحة كأنها قصيف الأعصار (الفناء لكم أيها الطغاة).

واندفع نداء قوي مهيب مادت له الأرض، وخشعت السماء (بعداً لحكم الجاهلية، الإسلام هو الذي يقود الحياة).

ويتطلع الناس على خوف وحيرة وقد انزاحت بعض الأثقال الباهظة للرهبة عن قلوبهم، فإذا بهم أمام رجل إلهي وقور قد أطل عليهم بنوره الثاقب وجلاله الأخّاذ من أفق النجف ينادي: (أوبوا أيها التائهون، وقوموا أيها الخانعون، وهبوا أيها المستضعفون، ندك عرش الطاغوت، ونمحق غلواء التيه والضلال، هيّا ارحضوا عن أنفسكم وصمة الذل والهوان، فأنتم أحفاد الأعزّاء، وامحوا عن وجوهكم سيماء القهر والعبودية، فأنتم أبناء السادة الفاتحين، وكسّروا قيود الاستعباد فأنتم سلالة أولئك الأحرار واهبي الحرية، واقبروا الجاهلية الجديدة كما صنع أجدادكم الميامين بالجاهلية الأولى).

وإذا به الصدر بركان رفض واباء يتفجر فتتوزع حممه على أنحاء الباطل تحرقها رويداً رويداً.

في تلك الحال التي لا يحيط بها المقال، ثار عنفوان الإباء لدى الإمام الشهيد، فكان تحريم حزب البعث كالسيف البتّار يعبث في أحشاء تلك العصبة المجرمة، فقد فُضِحوا به كفاراً يريدون أن يعيدوا الناس الى الكفر من جديد، وكان ايجاب أنْ تؤخذ الرواتب على وظائفهم بنية أنها قد أخذت من يد الإمام لا من أيديهم فهم لصوص سارقون.

وكان حظْرُ أن يصلي الناس خلف من لايمتّ الى المرجعية الرشيدة بسبب، فضلاً عن الصلاة خلف من تشده الى الضلالة البعثية علاقة مهما كانت.

ثم كانت الصرخة الكبرى كالبركان الهادر، والدعوة العظمى كالرعد القاصف:

(على كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي خارج العراق أن يعمل كل ما بوسعه، ولو كلفه ذلك حياته، لازالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذ شريف يقوم على أساس الإسلام).

وأي رفض هو أقوى من هذا الرفض الجاهر؟

وأي إباء هو أورى زناداً من هذا الإباء الثائر؟

وراح الإمام يسرِّي رفضه الى وكلائه وعلماء البلاد من تلامذته، كي تمشي في عروق الأمّة حرارة هذا الرفض تحركها وتدفعها الى الثورة، لتغيير الواقع المرفوض، وكان يحصّن وكلاءه بسرابيل واقية من الرفض لما في أيدي الظالمين وأعوانهم وإن مدوها ملتمسين القبول، ورفض التقائهم مهما كانت الدواعي لذلك تبدو بظاهر الصلاح والسلامة والجدوى، وما ذلك إلاّ لأنه يريد للوكلاء أن يتحسّسوا بالتجسيد أنهم نوّاب القادة الحقيقيين الذين كل من عداهم قادة مزيفون، ويتحسس الناس بالواقع الحي أنّ هناك بوناً بعيداً نفسياً وجسدياً بين قيادة السلطة الحاكمة وأذنابها من جهة، والقادة الواقعيين وممثليهم من جهة أخرى. هذا والكثير غيره كان من مضامين النهج الرائع الذي خطّه الصدر لرجال الحوزة المخلصين لدينهم وقضيتهم، فمشوا عليه فسطروا على قصر المدّة أروع المواقف الإيمانية الجهادية، وكتبوا بالصبر والمصابرة دروساً لا تُنسى عن التضحية والفداء والعطاء على منهج الصدر.

صورة مصغرة لهذا الرفض كانت منه (رض) معي، فلست أنسى كلماته المباركة

في وصيّته لي عندما أمرني بالخروج حيث رأى موضع الحاجة إليّ: (لا تلتق بأحد من المسؤولين، ولا تقصده أبداً مهما كنت تشعر بالحاجة الى ذلك، لا تستقبل أحداً منهم صغر أو كبر. لا تقبل منهم هدية، ولا تأخذ من أيديهم شيئاً، لا تتهيب أن تدعو الناس الى المحور، وإن تظهر لهم إنك وكيل لي جئت تهدي الناس بأمري، ولا تتستر باسم أحد غيري لا .. لا .. لا ...).

وانطلقت من فمه (لا) تزلزل الأرض تحت أقدام الطغاة رفضاً لهم حين قالها جريئة باسلة (نعم) لدولة الحقّ والقرآن التي قامت على ثرى ايران، يصحبها تمجيد لهذه الدولة وللإمام القائد الكريم ما ساماه أحد فيه، وتعظيم لشأنهما ما سبقه غيره اليه.

فالإمام عنده فاتح مبين، أثلج صدور النبيين والأئمة الطاهرين، ينبغي لكل أحد أنْ يذوب فيه، ويلهف اليه، ويستهديه، ويطيعه ولا يعصيه، فهو الإمام المظفر المنصور الذي إنبلج صبحه بالنور، وهو صاحب الراية، وماتح حوض الهداية، في ديجور الضلال وسورات الغواية.

وهذه الدولة في رأيه حلم عزّ نيله على كل الهداة الميامين، فألفوا به اليوم مأمولاً أعيي قبل هذا فتحقق، ومطلوباً استعصى فنالته يد الظفر، فكان منه الحمد والثناء على رب سبب لها بألطافه، ومن الشكر والولاء لقائد قاد اليها بحكمته وتدبيره، ومن المعاضدة والتأييد مالم يكن له حدود، حتى لقد مدّ يده اليها لتدبير بعض أمورها بل أهمها، فكتب لها لمحة عن دستورها لتستنير بعلمه، وتحظى بنصيب وافر منه، نصيراً وظهيراً، لقدرة قوله، وسلطان عقله، وآثار فعله.

(لم يكن الإمام الخميني قدس سره في طرحه لشعار الجمهورية الاسلامية إلاّ

استمراراً لدعوة الأنبياء في امتداد لدور محمد وعلي ـ عليهما السلام ـ في إقامة حكم الله في الأرض).

(إنّا إذ نتطلع الى المزيد من إنتصاراتكم الحاسمة نضعُ كل وجودنا في خدمة وجودكم الكبير، ونبتهل الى المولى سبحانه أن يديم ظلكم، ويحقق أملنا في ظل مرجعيتكم وقيادتكم).

(يجب أن يكون واضحاً أنّ مرجعية السيد الخميني التي جسّدت آمال الإسلام في ايران لابدّ من الالتفاف حولها، والاخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم).

(إنّ الواجب على كل أحد منكم وعلى كل فرد قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الاسلامية الرائدة أن يبذل كل طاقاته وكل ما لديه من امكانات وخدمات، ويضع كل ذلك في خدمة التجربة، فلا توقف في البذل والبناء يشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوة الإسلام).

وكانت أفراح هذه الدولة افراحه، واتراحها أتراحه، يهنأ قلبه ويبسم ثغره إذا ابتسمت، ويحزن قلبه إذا تجهّمت، فكان قتل مفكرها الكبير (المطهري) ذلك الخطب الحازب الذي أقامها وأقعدها، وذلك الكرب الجائح الذي قام هو له وقعد على شاكلتها، وأقام له حفل تأبين مشهوداً برغم ما يراه من شقة العداء بين دولة الظالمين الذين دوّت صرخة رفضه هم في آذانهم فوجفت لها قلوبهم، وبين دولة الحق التي راح يمدّ يده لها ليشد على يدها تأييداً، ومناصرة واسناداً، على رغم ما يسمعه منهم من التحذير من تأييدها.

وأصرّ على دعمها وإعلاء كلمتها، ونهض بأمور وأمور مما احطت به علماً وما

لم احط به من فنون المعاضدة والوان المساندة. مما كان رفضاً صارخاً للطغاة ليس له شبيه، وإباءً جاهراً للظلم والظالمين عزّ على المماثلة. وكان لهذا سهمه الوافر في التعجيل عليه، واغراء الجناة به، وتحريضهم على فراغ البال من همّه الجسيم المطبق، والراحة من بلائه المستطير المحدق.

لقد بلغت درجة الرفض بشهيدنا أعلى مراقي الفداء، فقد وضع قلبه الرافض على راحته يخوض به لجج الخطوب، ولهوات المنايا القواتل غير حافل ولا ناكل. وما كان أروع تصميمه المذهل على ذلك العمل الاستشهادي الوتر حين قرّر أن يعلن كلمة الرفض للظالمين جاهرة صاخّة في صحن جدّه المرتضى في النجف على مسمع الأمة ومرأى الطغاة الجائرين، وأن يظل في اعلانه ذلك يتلو فصول كلمة الرفض حتى تسكته رصاصة الكفر ليخرّ مخضباً بدم الفداء شهيداً من أعظم الشهداء، وحالت أمور دون هذا الأمر العظيم، ومرّت الأيام لتحقق له هدفه المنشود على درب التضحية والعطاء، في قمة البذل والفداء، على منهج الرفض والإباء.

الإمام والمسؤولية

ألفى العمل الرسالي ـ وأعظِمْ به أمانة الهية ائتمن الله عليها عباده المخصلين ـ نفسه في العراق بل في العالم الاسلامي ردحاً من الزمن هو عمر جهاد الامام الشهيد ـ عيالاً على جهاده فكراً وعملاً، يسقيه إذا ظمئ من زلال سلسبيل من معين ابداعه، ويطعمه إذا جاع مما تلذ نفسه من ثمار جنانه الفيح لعقله المعطاء، يلوذ بفكره من عاديات الفتن، ومضلاّت الأهواء، وجامحات الآراء، أتته تترى كقطع الليل المظلم، فقماء مغوية كأنها متاهة ليس لها مدىً، مزبذة مربدة كأنها اعصار فيه نار، سوداء مخشية كأنها ليل اسفع عاصف. فراح فكر الإمام الشهيد يحضن الإسلام يرشه نوراً تستضيء به العقول في الفتن الداجية، وسداداً تعتصم بحبله افكار الجيل في موج الاهواء، وحقائق نيّرة البرهان لا تفت في رسوخها وأستمساكها آراء المبطلين، وعاد الإسلام بفكر الإمام ودأبه كشمس الضحى لا تحجبها عن العيون سدف الليالي الواردات، ولا تصدّها عن الأنظار كثافة السحب الدكن، ولا تضير جلاها وشموخها عرامات التشويه والافتراء، وأضحت الشريعة في كل العالم الاسلامي كالحصن الحريز لا تقتحمه جحافل الباطل، والمعقل المنيع لا تتسوره جنود الإلحاد.

وكان الإسلام السياسي الثائر في العراق عيالاً كذلك على فكر الشهيد وجهاده، فأعطاه من فكره ما أعطاه، وحماه به من كل كيد أتاه، ثم قرن الفكر بالعمل، والرأي بالسعي، والفداء بالاقدام، والتوجيه بالمناضلة، وتزييف الباطل بمقارعته، وتفنيد الغوايات بالوقوف في وجهها، والدعاء الى رفض الطغيان بمثاورته، والأمر بمنابذة الظالمين بمقاومتهم.

لقد تحمّل الإمام الشهيد عبء الإسلام في عراقنا المأسور، وكان تحمل العبء في تلك الحال التي رأيناها من جَمَحان الظلم، ونَزَقان الباطل، واستشراء البغي - جسيماً عظيماً لا تحتمله إلاّ قلوب صادقة رزينة، ونفوس وفية أمينة، تستهين لنصرة الحق بالصعاب، وتستسهل في الطريق الى الله كل الأثقال والأتعاب.

وأعلن الإمام نفسه خصماً عنيداً للضلالة العفلقية، وغريماً شديداً لطاغوت البعث الأثيم، وكان معنى ذلك في نفس الإمام حسب شواهد الحال أن يكون ترقّبه للموت أوفر منه للفوز، ونظره الى الشهادة أكثر منه الى نيل الغاية العاجلة، وانتظاره لريب المنون أقرب من انتظاره للظفر. بل كان (رضوان الله عليه) يرى الموت حتماً في هذه المجاهدة، والشهادة فرضاً في ذلك الصيال، فما ضعف ولا استكان، ولا فتت مهابة القتل في عضد عزمه البالغ، ولا ألانت شدة الخطب بأسه الصلب العنيد، ومضى ينقل قدمه الراسخة في الأتون ولا يبالي، يركل بها جسد الضلال الهائل ليحطم اوصاله. وعصفت في وجهه عاصفات (البعث) فما عاد أدراجه من عجز ووهن، وما كَبتْ به القدم من خوف ورهبة، وانشب وحش البغي مراراً أنيابه في جسده الكريم، وأخذه الى سجونه ليضع نصب عينيه مخيفاً شجرة العذاب كأن طلعها رؤوس الشياطين، ويملأ أذنيه محذراً بزعيق الوعيد

والتهديد، ولكنه يؤوب بعد ذلك وهو على شأنه من مجاهدة للبغي دائبة لا تعيي، ومناهضة للجور واصبة لا تخور، فلا العذاب فلّ عزمه، ولا رعود الترهيب قد لوت عنان انطلاقته، او غيّرت وجه اندفاعه.

كلاّ لو يعلم الطغاة أنّهم لن يؤثروا في عزيمته بما أروه وأسمعوه شروى نقير من التأثير، ولن يُصيبوا من شكيمته مثقال ذرة، ولو علموا أنّهم أمام صخر أصمّ قُدّ من جبل أشمّ، لعلموا أنّهم فيما يطلبونه من المحال كباسط كفّيه الى المال ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وأنّ دأبهم الحثيث معه فيما يرغبون كرمادٍ إشتدت به الريح في يوم عاصف، وأنّهم لن ينالوا ما يحبّون حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، ولكنّهم كابروا أنفسهم، وسولوا لها ان تتطلع الى شيء من الآمال يربو على الخيال.

يدخل عليه أحد أعلاج البعث (زيد حيدر) مع أحد الأزلام في بادرة بعثية لكسب ودّ من لا يودهم ما دام الله لم يأذن بودّ الظالمين، وكان املهم كما يظنون أن يكون الحديث من الإمام معهم طافحاً بالرضى إن لم يكن بالسرور بزيارة مسؤولين في الدولة، وما تعبر تلك الزيارة عنه من الاحترام لشخصه والإكبار له.

وخاب ظنّ الجائرين الذين ينظرون الى الأمور بعين الدنيا، ويزنونها بموازينها التافهة.

لقد كان حديثه معهم حديث القائد المؤمن الهمام، عرّفهم فيه دوره ودور العلماء والحوزة العلمية في مسيرة الأمة، وعلاقة هذه الأمة بروادها الحقيقيين وتاريخهم الجهادي في التصدي للدفاع عن حرماتها ومكاسبها، وإنّ العلماء هم ضمير الأمة ووجدانها، وهم موضع اسرارها، وهم لسانها الناطق ... وكان الحديث طويلاً، وكان المستمعون ينصتون بإكبار وإجلال، وهم يرون أمراً فريداً لم

يروه من قبل، عالماً رسالياً يقول الحق بصرامة واقتدار، ثائراً رافضاً ينطق بآيات الرفض والإباء تنزّل من علياء النجدة للحق المهتضم، والحمية الإسلامية المقدسة.

ويختم الإمام كلامه بعبارة الرفض الجاهر حين يلتفت الحبوبي الى زيد حيدر ويقوله له (إنّ مثل هذا الرجل يجب أن يكُون عالماً للبعثيين).

يقول الإمام الهمام:

(أنا عالم المسلمين لا عالم البعثيين).

فيا لها ضربة من باسل مقدام على هام الكبرياء البعثية حيث يعلن براءة العالم المسلم من زمرة البعث، وهل ذلك غير براءة الإيمان من الكفر، والإسلام من الجاهلية؟

لقد شغلت بال الإمام الشهيد قضية الإسلام التي أعطاها عصارة عمره، وبذل لها زهرة دهره، فكان مطمحه أن يراه خفاق اللواء على أرض العراق، مبسوط السلطان على ربوعه، ليرى الناس في عدله القويم سعادتهم، ومن حكمه الميمون هناءهم، وكان المحرومون والمستضعفون الذين أمّلوا فيه أعظم آمالهم نصب عينيه، يراهم بناظره إذ لم تحجبهم عنه حجب الاستعلاء ولا أستار اللامبالاة، ويسمع شكاتهم فيحس كأنها نصال تخترق أحشاءه، ويسمع من أخبارهم ما يرمضه ويسهّده، فلم يجد الإمام بُدّاً من أن يستنهضهم وينهض بهم، ويشحذ هممهم ليصاول بها، فهم سلاح ثورته، وهم جلّ غايتها، ففتح لهم قلبه يذيقهم دفأه بعد أن حُرِموا دفء الحياة، وفتح لهم ذراعيه يضمهم الى صدره الحنون بعد أن نَبَتْ بهم ونبذتهم معيشتهم الكأداء، وفتح لهم باب داره على مصراعيه ليجتمع بهم ويسمع منهم، ويرسم لهم طريق الخلاص. وجاؤوه من كل حدب وصوب زرافات

ووحداناً، شيباً وشباناً، وحسرت اليه الكواعب وبنات الخدور، يبايعونه مخلصين، ويبدون صفحة البأس والعناد للظلم تحت لوائه ثائرين.

فراح هو يأسو جراحهم ببلسم كلامه، ويربط على قلوبهم برباطته، ويشد على أيديهم بيد الاقتدار يقول لهم: (قد آن للمستضعفين أن يمكّنوا ويسودوا، وللمحرومين أن تفك عنهم أغلال الحرمان) (قد صممت على الشهادة لأنها غاية الطريق في سعيي من أجلكم وبذلي في سبيلكم، ووالله لن أُسْلمكم، أو أخذلكم، أو أتخلى عنكم، ولو كان دون ذلك تقطيع الأوصال على ثرى كربلاء مكرورة في عاشوراء مجدد، وسيبقى دمي بعد ذلك حراباً مشرعة لها طعن دَرَاك في صدور الظالمين، وسيوفاً مصلتة تقدّ رقابهم، وصرخة مدوية ليس لها خفوت تقضّ مضاجع المستكبرين).

وأعظِمْ بعشق أولئك المحرومين إمامتهم، ومحبتهم لقائدهم، مذ ألفَوه ذاب رفقاً بهم، ورحمة لهم، واشفاقاً عليهم، ولقد سمعوا يوماً أنّه يريد أن ينصرف عن بلاد السوء الى بلاد سواها، فعجوا وهاجوا، وماج بعضهم في بعض من قلق وحيرة، وأرقلوا اليه مسرعين يستوضحون صدق الأنباء، ليذوقوا طعم النعيم بتكذيبها، ويعطوا الإمام عهداً مؤكداً على الموت دونه أو يوقعهم في يتم فادح، وخطب جائح، حين ينأى عن وجوههم فتذوي في الصدور آمالهم، وتغرب عن عيونهم شمس تنير لهم مسالكهم في الديجور، وتبصّرهم مواضع اقدامهم في المتاهة.

ويطلع عليهم إمامهم بوجهه الباسم اللألاء ليفقأ عين خشيتهم فلا تراهم بعدها، ويكسر جموح الخوف فيهم، ويذيب نزقان التوجس في صدورهم، ويقول لهم قولته المشهورة (محياي محياكم ومماتي مماتكم). ليصدق فيها صدقاً لا يجارى،

ويفي لها وفاءً لا يماثل، ويعطيها دليل الصدق والوفاء دماً زكياً مسفوحاً، وجسداً مباركاً صريعاً.

ولقد وفت للإمام الشهيد امّته كما وفى لها، وصدقته العهد على الوفاء والفداء كما صدقها العهد على الريادة بكل أحمالها، فحين امتدّت يد الطاغوت بالأصفاد لتكبل يد الإمام، وتمضي به الى ظلام السجن لتفصل بينه وبين إتمام مسيرته، قامت تلك الأمة مذعورة فزعة كأنّما صِيْحَ بها عن نوم، واندفعت كالبركان لها صوت يدوّي ويهدر، وحمم تنتشر فتدمّر، ومذاب يسيل فيفتك بمن يبدي صفحته له.

لقد انثال على بيت الإمام جمع كثير من الوحوش الكاسرة على هيئة بشرية، وسدّت المنافذ الى البيت، لا تفارقها رعدة المقرور، ورجفة الخائف المذعور، إنّها رهبة الحقيقة التي جاؤوا ليظلموها وهم يعلمون أنّ الغلبة لها، وهيبة الحق الذي أتوا ليطفئوا نوره وهم يدرون أن الله متمّه وهم كارهون، وذلك هو شأن القاهر المقهور، والآسر المأسور، وهم ما تأهبوا هذه الأهبة، ولا أقبلوا بهذه الكثرة مبكرين إلاّ احساساً منهم بعظمة من بسطوا اليه أيديهم بالسوء، وهيبة من هموا أن يسطوا به ويكيدوه، فتصوروا تلك العظمة بسطة في الجسم والقوة، وظنوا تلك الهيبة بأساً وقدرة، وحسبوا لذلك الجلال وجهاً رهيباً إذا جاؤوه عن قلّة هابوه، وضعفوا عن مواجهته، وما علموا أنهم إنما يهجمون على رجل يده بيضاء قد خلت من أسباب المدافعة، وجسمه واهن قد خلا من أشراط الممانعة، إن دعوه أجاب غير خائف ولا هيّاب، لا يخافهم وإنما هم سبب الى الموت فلو كان يخشاه لخشي سببه، لكنه كجده السبط الشهيد يرى الموت سعادة، والشهادة رأس الفخر،

والقتل في سبيل الله سيد الفضائل.

(فهلمّي يا رسل الموت. وهلمي يا أسباب الردى. فما زال الصب المستهام على شوقه المدام، يسأل أيان تأتين بفتحك المبين؟ ما خافك مذ عرف أنّك الباب الى غاية مجده، وما هابك مذ تيقن أنّك الطريق الى منتهى شأوه وجدّه، ومثلك يحمد ولا يذمّ، ويشكر ولا يكفر).

لقد كان اعتقال الإمام في رجب مشهوداً، عرف منه القائد صدق أمته ووفاءها، وعرفت منه الأمة عزم قائدها ومضاءه.

وعرفت منه عصابة الشؤم أنها في أحشاء زلزال يهمّ أن يبدّل عاليها سافلها، وعلى شفا جرف هار من الفناء، ما هي إلا ريثما تعصف ريح الوثبة الأخيرة لهذه الأمة الرافضة وإمامها الأبي ليقذفا بها في حضيض اللعنة الدائمة لعنة التاريخ والأجيال.

لقد سمعت الأمة بالنبأ فاندفعت كالعاصف الزعزع، وانتفضت كالأسد الهصور أهين في عرينه، وانطلقت صرخاتها من كل مكان تدعو بالويل والثبور للطغاة والجناة، وعظائم الأمور لمن أهانوا الأمة في قائدها.

وكان الموقف الرائع الفريد في معقل الإمام في النجف هو ما صنعته إمرأة لا كالنساء، هي صنعة ذلك الإمام، ورتّبت فصوله أنثى وادعة قد صيّر منها مربيها ليثاً هماماً، وبطلاً مقداماً.

لقد خرجت وراء اخيها بين يدي الظالمين لتصيح بهم صيحة كأنها صيحة القدر، تقول لهم: (تبّت أيديكم أيها الجلادون لأنها لا تحمل غير القيود، وضل سعيكم أيها الظالمون، لأنّه تمحّض للقتل والخراب، وخاب جهدكم أيها الحاقدون

لأنه لم يعرف سوى التضليل والتقتيل.

أتحسبون حرّ القيود يخيفنا؟ وثقلَ الحديد يبهظنا؟ والموتَ يرهبنا؟ ونحن على بصيرة من أمرنا، وبينة من ربنا، وأسوة من أجدادنا، لم نخط خطوة على الطريق الذي اخترناه إلاّ بعد أن عرفناه طريق عناء ودماء، لم نأته جاهلين، أو في أمره متحيّرين، أو في مواصلة السير فيه مترددين؟

انكم في الوهم الكبير إذ تحسبون أنّ قدرتكم أمضى من عزيمتنا، وأن سيوفكم أشدّ وقعاً من صرختنا، ولنا بعد ذلك ربّ رؤوف كتب لينصرن عباده الذين نصروه، وعليكم منتقم جبّار قضى ليبيرنّ الظالمين، ويخضد شوكة الجبارين، هلموا ادخلوا البيت فانظروا ما الذي فيه يخيفكم؟ وماذا فيه مما ترهبون غير قرآن مجيد أبى الله فأبينا إلاّ إعلاءه وتبيانه، ورسالة غراء وضعها الله أمانة في أعناقنا فشئنا أن نصون الأمانة، ونؤدي الرسالة، ونحفظها من مطامع الغزاة، وحراب الطغاة؟

عجباً لكم ولما تفعلون! جئتم بالعدة والعديد، والرجال والحديد الى رجل تعلمون أنه أعزل ليس له إلا صبي لا يقدر على شيء، وصبايا ليس فيهنّ له أمام عدوّه غَنَاء.

أما كان الأجدر بكم أن توجهوا بنادقكم هذه الى آسريكم ممن يهتكون أعراضكم فلا تغارون، وينهبون أموالكم فلا تغضبون، ويدوسون كرامتكم فلا تثأرون؟ أما كان الحري أن تذهبوا بها الى غاصب أرضكم ودياركم لتخرجوه منها كرهاً إن كنتم تصدقون في مزاعمكم؟ بل أنتم الساعة تحمونه بها ممن يصدق في عداوته له، وحربه إياه، وعزمه على قمعه وقطع دابره.

ألا أيها الآسرون المأسورون، والمخيفون الخائفون، تعساً لكم ولما تقترفه

أيديكم يا جناة التاريخ، وقتلة الأبرياء، ومطفئي نـور السـنن، ومهلكـي الحـرث والنسل. لتعلمنّ عما قليل أنّ الله ناصرنا، ومنجز لنا غايتنا، فهـو معتمـدنا، وهـو موضع حاجتنا، وهو مبيركم، ومهلككم، والمدمّر عليكم).

إنها تتحدث وترى الجناة الجفاة أمامها زرقاً ناكسي رؤوسهم، تـدور أعينـهم كالذي يُغشى عليه من الموت، يتخافتون كأنّ على رؤوسهم الطـير، وقـد دهمـت الصيحة قلوبهم فهي واجفة، وتغيرت وجوههم إذ تغشتها سحابة من حزن مرير.

وكاد أن يطول بهم المقام في هذا الضِرام لولا أن عجّلوا بالانصـراف يحوطـون كالذئاب على مخافة بالغة بالهِزَبْـر الأسير.

ولم تقف بـ (بنت الهدى) قدماها عند ذلـك الموقـف، بـل انـدفعت مهطعـة الى ضريح جدّها أبي السبطين لتصيح بين الجموع، ولصيحتها مرجل من العزيمة يغلـي في نفوس المؤمنين، وجيشاتٌ من المضاء تدور في أنحائهم، فعادوا منـها كالأسـود الضارية قد أسرتهم هذه الصيحة فهم على أثر خطاها لوحيها يقتدون.

لقد كان صوتها يدوّي:ـ

الظليمة الظليمة. من حكومة اعتقلت السيد الصدر.

أيها الناس يعتقل إمامكم وأنتم غافلون؟

ويقاد من بين ظهرانيكم وأنتم ساكتون؟

ماذا بعد هذه المصيبة تنتظرون؟

فما هي إلا ساعة حتى كانت قد دوت في آفاق النجف صيحة واحدة جاهرة.

(يحي الصدر، يحي الصدر).

وامتدت تلك الصرخة في الفضاء لتبلغ عنان السماء، وترامت في الأنحاء لتطبق

الأرجاء، وتجاوبت كل جهات العراق بذلك النداء الغاضب الذي أفزع قلوب المجرمين، وأخذ بمجامعها، فتركوا الأسد يعود الى عرينه لم يمسسه سوء، ولم يصل إليه منهم أذى.

(وكان أمراً عظيماً أتت به بنت الهدى، فالنعومة والرهافة أضحت صلابة وعنفواناً، والضعف والوهن صارا عزمة ماضية وبأساً عواناً، وإلْفُ الخِدْر غدت نسراً جسوراً ينازع الريح الزعزع، وليثاً صائلاً يساور الهول الجامح.

فيا عجباً والله ما الذي أخرج هذه الأنثى الوادعة التي جُبِلت بخلقتها على اللين، وسنّت في تكوينها الدعة والراحة - من طورها الى طور الشدّة والبأس؟!

وما الذي عرّج بها عن دنيا الرّقة واللطف الى دنيا القسوة والعنف؟!

إنه صنع الإيمان والتربية الصدرية المبدعة التي أفاضت في الأرض الطافها آيات باهرة من المشاهد، وعلامات زاهرة من صنعها الكريم).

نعم لقد تحمّل الإمام الشهيد مسؤوليته تجاه ربه ودينه وأمته أعظم حال من التحمل، وضعها على ظهره بأثقالها الباهظة ليعبر بها بحر البلاء الدامي، ويرسو بها عند شاطئ الأمان.

ولقد كان عنده من خصائص الأهلية لحملها أمورٍ هنّ عماد قضيتها، وهنّ روحها التي تجري بين جنبيها.

كان عنده الفكر الرائد الخلاّق، والإخلاص، والوفاء، وعلو الهمة، ومضاء العزيمة، ونكران الذات، والتفاني، والاستعداد لبذل النفس.

أجل وكان عنده اليقين بالنصر ولو من عطاء الشهادة.

ولقد تجسّدت هذه الخصال في مسيرة جهاده تجسداً أعطى مثالاً لقيادة إسلامية

حقيقية قلّ مثيلها في تاريخ الإسلام..

(وليس ينسى العراق ولن ينسى أنّه قد تفرّد بالأثقال في قضيته رجل واحد اسمه (الصدر) زعزع الكربُ سواه ولم يزعزعه، وهالت النازلة غيره ولم تهله، ولم تجد في نفسه شيئاً من مخافة، لا يروعه الصليل فتخبو وقدة العزم في قلبه، ولا يهده النطاح فيقعد عن شأنه من مقارعة الهزاهز.

وكان في الزلزال الفادح قدراً من البأس قاهراً، وقضاءً من العزم ماضياً، طوى الزعازع بيمينه، ومشى في جحيمها كما يمشي السيل فإذا دخانها يختنق من سعّرها.

وكان في ظلماء الخطوب على ضياء اليقين فلم يحفل، ومضى في بلوائها على رسوخ الصدق فلم ينكل).



الريادة

لقد امتازت الشخصية الكبيرة للإمام الصدر (رض) بسمة فريدة وضعته في شغاف قلب المؤمن وانسان عينه، فالوجد والحرص هناك حليفه المسامر، والوله والإكبار نصيبه الملازم، وهو ثمة زاد الحب والعرفان، وضياء البصيرة واليقين، والنور الهادي على السبيل، حيث اعتكرت دياجير الأباطيل والأضاليل، وادلهمت ليالي الفتن والشبهات، وتكثفت حنادس الحماقات والجاهليات، وتلك السمة الفريدة هي (الريادة) في أمورٍ هنّ سنام مجد الإسلام وعزّه، جمعن له جمعاً بلطف ربّه وبدأبه حيث حجزن عن غيره حجزاً، وجئن اليه بمشيئة اقتداره مذعناتٍ إذ قعد الوهن بغيره عن أن يظفر لديهن حتى بهاجس التسليم.

وكانت الريادة الصدرية في هذه الأمور المهمة:

أولاً: ريادة الفكر الإسلامي الأصيل

فليس ثمة في بني الإسلام أو خصمائه من لا يشهد لذلك المفكّر الفذ بأنه رائد الفكر الإسلامي في ابوابه وطرائقه وفنونه، وفي كل مجالات الإسلام الواسعة، وشؤون ذلك الدين الحنيف، فهو فقيه وطأ هام الفقاهة بشموخ فذّ، وفيلسوف

دوّخ العقول، وباحث تاريخ يغوص في أعماقه يستخلص سننه وقوانينه، وكلاميّ بذّ المتكلمين، ومفكر سياسي بارع صنع الثورة وفجّرها في عنف الطاغوت، ومفسر قرآني سبح بعزمة الفهم والبصيرة في الخضم العباب لنور الكلمات الربّانية الموحاة، فيطلع بها قبسات يبسمن للوجود عن ثغر الجدة، والعمق، والشمول، والانتساب البديع للروح القرآني الرفيع.

لم يدع مجالاً في شؤون رسالته العظيمة لم يطرقه يستثير دفائنه، ويستخرج لآلئه الحسان، ويطلع بمناقبه الفاتنة وأياديه البيض على البشرية بلطف واقتدار، وعزيمة واصرار، حتى طبّق أو كاد كل تلك المجالات بحثاً وتنقيباً، وإثارة، وطرحاً، وبياناً، حيث بدا الاسلام فكر السماء سماوياً يهزأ بتفاهات الأرض، ربانياً يسخر من حماقات المربوبين، علوياً متسامياً صعقت لفرط عظمته سخافات التدني والهبوط، جليلاً مهيباً ذابت لمهابته سفاهات أهل الوضاعة والصغار.

(ولم يزل الصدر مع دينه باذل الورد من روضته الغنّاء، ونافح العطر من جنته الفيحاء، ومستخرج عظمته في القرون المتطاولة سترتها عرامات العادين، وحجبتها استار الشياطين.

ولم يزل ماتح الحوض الموصول بالكوثر في كبد النعيم، يسقي الظمأى الى الحقيقة عذبها الشبم الزلال، لينقلبوا وقد نقع غليلهم بعد أن أحزبهم صدى الهواجر، وعطش الجدب والمحول).

وإنك لترى الإسلام الأصيل طلع به فكر الشهيد الصدر على العالم مثار العجب به ومنه، والدهشة لروعته، والحيرة من إعجازه وإفحامه، وقد حظي بالرضا والقناعة في العقول والقلوب، فحازها احتياز الفاتح الظافر، وحركها ببأس اليقين

الكبير لتعطي عطاءها.

وامتد فتح الفكر الصدري تياراً مارداً أخذ على الضلالات الوافدة كل الآفاق، فهي مدحورة مخذولة، واستبانت وضيعة زائفة لا تقدر يدها الشلاء على دفاع، ولا يحير لسانها الألكن نداءً.

واعتلى الصدر منبر الريادة الفكرية في عالم الإسلام المعاصر ملاكاً مقدساً ورائَدَاً هماماً، تسمّرت به العيون، وذابت الافئدة، وانغمست الأرواح في أنواره يهذّبها ويصقلها ويجلوها ليبديها صنائع البر واللطف، وعطايا الفضل والإحسان.

لقد كانت معالم العظمة في فكر الشهيد الصدر تتجلى في أنه كان فكراً اصيلاً لم ينبع إلاّ من أصله الصحيح، لم يجانفه مجانفة عامدة او ساهية، ولم ينحرف عنه، لأنه نظر بعينه واستهداه، فما شطّت به قدماه الى سواه، ولم يُدْخِل فيه ما ليس منه لأن صارف التقوى المقتدر، وعبقرية الكشف والتمييز عصمته من مساءة ذلك الزيغ، ولم يمزجه بشوب مما خلاه، ولم ينقصه بزخرف مما عداه، بل كان هو فكر الإسلام كما جاء به الوحي نوراً هادياً، ودلالة مرشدة، وسداداً عاصماً، ولقد كان فكره فوق كونه شمولياً مستوعباً أنه تميز بالعمق، فله غور بعيد المدى تكمن فيه العجائب، فكان رصيناً شديد القوى، عيّت بمنافحته الحلوم المقتدرة، فقعدت أسير العجز والحيرة.

وتلتمع في فكره الفذ نزعة الكشف والابداع، والبحث عن الكنوز الدفينة، ولقد عافت نفسه الرضا بالمطروح، واجترار المألوف، وأخذ ما تعاقبت عليه الأزمنة او تسالم عليه الأكابر أخذ المسلّمات، وكانت روحه تواقة الى معرفة ما في الإسلام من عظيم شؤونه ومواهبه، وسنيّ عطاياه، وعجيب أسراره في الفلسفة الكونية،

والعقيدة، والنظام، وعظمة التشريع، ووحدة المنهج وتكامله، وسيرة القادة الهداة (الأئمة) في الثورة والاصلاح، وطريقهم المدروس (إن صح التعبير) في القيادة.

وتناهضت قوة العزيمة الثاقبة، واصرار القلب المشوق، وعشق النفس الوالهة، والألق الفكري المشهود – على أن تكون له جناح نسر عملاق يحلّق به في سماوات دينه الممتدة المتمادية، فإذا به قد بلغ الكثير مما يحب، فبات قرير العين، راضي الروح، منشرح الصدر، بما حظي به وأحظى من جزيل النوال وعظيم المنال.

ونزعة الابداع تلك يحسها المتطلعون في مسيرة الصدر الفكرية البديعة في جلّ ما طلع به على دنيا المسلمين من مواهب الدين العظيم، وتتجلّى تجلّيها الطوريّ الصاعق في كشفه أُسسه المنطقية للاستقراء، والنظرية الاقتصادية في الاسلام، وفلسفة المنهج القيادي عند الأئمة الميامين.

وكان أروع ما في منهج الصدر الفكري أنّه منهج المنطق والبرهان، فلا تجد في ما يطرحه الصدر إلاّ أموراً مبرهنة مستدلاً عليها، معاضدة بالدليل، مدعومة بالحجة حتى في تلك التي سمّوها ذوقية وجدانية أو عقلائية، فقعدوا وانين او عاجزين عن إقامة برهانها.

وكان الصدر البرهاني عتيد الدليل حاضره، تتفتّق قريحته المبدعة عن طرائف النكات الاستدلالية. وقد اعتبره العارفون لهذه الخصيصة في منهجه مدرسة اسلامية قامت على المنهج المنطقي والدليل العلمي، مدعوماً بما ابتدعه من طرق الاستدلال الذوقي العقلائي، فإذا هي مدرسة برهانية متكاملة تدهش العقول لعظمتها واعجازها.

وكانت خصيصة الاستيعاب لدى ذلك الإمام الهمام في منهجه الفكري خصيصة عجيبة، فلم يكن ليذر موضوعاً يطرحه حتى لو كان اعتيادياً دون أن يتعامل معه تعامل الطبيب الجرّاح، فيروح بمبضعه المرهف يمشي في اجزاء الموضوع (الاحتمالات) يتفحصها تفحص الشفيق الدقيق، يبحث فيها عن السرّ الكامن حتى يبلغ المرام في سيره.

وبذلك كان الصدر منهجاً فريداً في روح الاستدلال والاستيعاب والطابع البرهاني الشمولي.

وبهذا كانت ريادته للفكر الإسلامي ريادة شهد له الجميع فيها أنه فارس الصيال في حلبة النزال، وغالب الأقران إذا استعر الميدان، وأنّ ثورته الفكرية هي أعظم ثورة بعد ثورة الوحي والتنزيل، تدل أهدى دلالة على عظمة ذلك المنهج الرباني، ونشأته الإلهية، واعجازه الجبروتي، واقتداره المذهل، وحقيقة النبوّة والانباء ووحي السماء، بالمنطق القويم والبرهان القاطع، والبينة الدامغة، والحجة الواضحة، بعد أن كان أكثر أمر الدليل على ذلك يلوذ بالوجدان، ويهرع الى التسليم والإيمان وفريضة الإذعان، ويهرب الى المدّعيات العرفية والذوقية، والمرسلات العقلية، بلا سند مقبول، ولا دليل معقول.

وأصبح الوجدان لدى الصدر منهجاً استدلالياً يحفل بنكاته الطريفة، وبراهينه الظريفة، واصبح الذوق العقلائي والعرفي في عالم الصدر جنّة برهانية فيها ما تلذّ الأعين وتشتهي الأنفس، من نعم الأدلة والحجج التي تلوي اعجاب القلوب اليها، وتنحو بإذعان الألباب شطرها.

ثانياً: ريادة الحالة الثورية في العراق

وتلك سجية كبرى من سجاياه العالية، نهض به اليها عزم الإيمان الصادق العاشق، يظاهره الوعي المكين المتين بمطالب الدين المبين، تعضدهما روح رافضة أبيّة، ونفس شامخة عليّة، تأبى أن تذل للجناة، او تركع للطغاة، أو تسكت على الضلال الذي راح يتولى الأمور مهيمناً مدبراً قد ثنيت له وسادة الحكم يقضي بالغيّ، ويحكم بالجهل، ويسوس بالعمى، ويهدي بالضلالات الى الشقاوات، وقد أحمى مياسم الكفر والالحاد، وانتضى بواتر العنف والفساد.

واندفع الصدر السياسي الثائر البارع الى المقاومة السياسية والرفض الثوري، وتحركت قواه على قلّتها وشدة العداء من حولها تعمل في الساحة السياسية العراقية تدعو سراً واعلاناً الى هدى الله وشريعته وتحكيم دينه.

وانطلق الصدر المدبّر بأساليبه البارعة الى تحريك الأمور المتاحة الى الهدف المنشود، وتوجيه دقّة العمل السياسي الاسلامي الى المقصود، بحكمة بالغة، وتدبير ذكيّ، واقتدار قياديّ جلي، وتميزت الريادة الثورية الصدرية هذه بأنها ريادة الواعي البصير العارف الذي أحاط بقضيته وهدفه وطريقه علماً، واستغرق آماله الكبيرة تفاؤلاً، وآلامه المتوقعة استعداداً واحتساباً، وجهوده المطلوبة عزماً على البذل، واحترامه للشأن الكبير فيه ثباتاً ابراهيمياً، وطول المسير مع المشاقّ الجسام صبراً محمدياً، واستدعاء المحن الفواقر لوازمها عند الثائرين شجاعة علوية، وما انفك في لهوات العناء الجائح صلداً كأنه الطود، آملاً كأنّه قد عاين حصول الأمر الرغيب للإسلام، أو أداء الوظيفة المفروضة بالجهاد، صابراً قد تجلبب الصبر درعاً دون فتّ العاديات في عضد الوقوف والثبات.

(عاينته المحن والآلام فهشّ لها، واتخذها سميراً مؤنساً، واشتجرت عليه رماح الإيذاء، فسكن اليها ظلال جنّة فيحاء، ودوّت في أذنه الرعود القاصفة للتبريح فأحالتها البينة من الأمر مع الصبر والاحتساب أنغام وعود حالمة بالغلبة او الشهادة، وأجاءته الصروف القاهرة مجعجعة الى السجون والترهيب فحوّلها التأسّي بالآباء الطاهرين قرناء القيود والمطامير محاريب عبادة، فيها ذوب العرفان وسكينة الوجدان، والفراغ المشغول بذكر الرحمن).

وامتازت ريادته تلك بأنها ريادة المحيط بأمور الزمان، الملم بشؤون الواقع، البصير بما يكتنف الدنيا وقضيته وما يدور حوله من الأوضاع، وما تستدعيه من المواقف والخطط والتدبير المحكم.

وكان أعلى السجايا في ريادته (التصميم القاطع على الشهادة).

فكان القتل وهو غاية الفتل في كيد الظالمين محبوبه ومطلوبه.

ومن كان ذلك مشتهاه فقد رأى في مقدماته من الكروب بشائر زاهرة تطلّ لها ضاحكة من وراء الغيب طلعة بهية هي طلعة الخلود المأنوس في رحاب المقام الأسمى، ومن رأى ذلك في مصائبه وآلامه فماذا ينتظر منه الجناة المفسدون وهم يكيدونه إلاّ المحيّر للعقول من الرفض والعناد، والآخذ بمجامع الأفئدة من الإباء والاصرار؟

لقد راد ركب الاستشهاد مذ صرخ في وجه الطغيان المهول هولاً مدمدماً فباء منه الظالمون بالخطب العياء، وسرت انفاس رفضه العابقة في قفر الهمود فأعشب روضاً طافحاً بينع الفداء، ودوّى بركاناً ذلك الصوت الصدري المهيب (لابدّ من دم طاهر مهراق يجري في الجدب يروي ظمأ الحق المضام من مهجة البذل، وينقع

غلّة الاسلام الى روح التضحية التي جُبل على أن لا يعيش إلا بها، ولا يقوم إلاّ بطاقتها، ولا يثاور إلاّ ببأسها).

والتمعت له في الأفق البهي بسمة الشهادة ساحرة فاحتبلت روحه، وارتهنت لبّه، وفاح عبيرها الآسر وتشمّمه، فأخذ بزمام قلبه، وطلعت عليه من جنة العلياء بهجتها النوراء، فسلبته التفكير فيما سواها، وأحاط به دَهْرَه أهابُ الشهادة بكل معانيه السامية وألوانه الزاهية، واستغرق فكرَه الرافعَ تصميمُه القاطع أنّه (قربان الرسالة).

فما زال المنحر المقدس الذي يستسلم عنده لسلطان الوفاء بالعهد الأسمى ماثلاً لعينه، كأنّه قد نبت في إنسانها، حاضراً في خاطره حضوراً متصلاً بلا انقطاع ولا نفاد، فهو قبل الشهادة شهيد حي ينطق، وقتيل يسعى، لكأنّه والشهادة كمن قد نالها، وسماً في معراج مجدها الى سبحات بارئها، تجلله الكرامة والبهاء، وتغمره الانداء والآلاء.

ثالثاً: ريادة الحركة التجديدية في الحوزة العلمية

لقد أوجد الشهيد الصدر (رض) منهجاً بديعاً لسير هذا الجهاز الذي يرى فيه أنه القلب النابض في الأمة يجري منه في عروقها دم الهدى والرشاد، ويفيض فيها روح الوعي والسداد.

ولو أن ذلك القلب امتلأ بالدم الجديد الذي احتلبه له الصدر من قلبه وعقله، وعجّ بتلك المشاعر الرفيعة والأحاسيس السامية التي هي مشاعره (رضوان الله عليه) وأحاسيسه لألفيت ذلك الزعيم المجدد قد اكتحلت عينه قريرة ببرود الأماني

الجسيمة المتحققة، وبات ناعم البال، خليّه من البلبال، بأخذ الحوزة للمقود والزمام، وأدائها واجب التصدّي والقيام.

ولقد تجسدت ملامح التجديد في حياة الشهيد الصدر في الحوزة العلمية بأمور جمة نجملها فيما يأتي:

أولها: المنهج الفكري الخاص القائم على السجية المنطقية والنزعة البرهانية، والاستدلال الذوقي والعقلائي، والنهج الموضوعي الفريد في الاستظهار الفقهي، وكانت بحوثه ودراساته الأصولية والفقهية بنهجه الفكري الخاص ذلك مدرسة جديدة طلعت على عالم الحوزة من مجتهد شامخ الرأي، لا ينحني للنقد والتفنيد لأنّه رشيد سديد، ثاقب النظر لا تفوته دقائق اللفتات، واسع المدى بشمولية مشهودة وموسوعية محمودة، دقيق عجيب الدقّة لا تعزب عنه حتى صغائر الاحتمالات، فهو رائد (حساب الاحتمال)، متين القوى لا تستعصي عليه أشد المستغلقات، مهيب الفكرة، كأنها هبطت من الغيب.

موضوعي الطرح قد تنزه عن أوهام الخيال.

منهجي البحث مغرم بروح الاستدلال البديع، شغوف بنزعة الكشف والابداع، فريد فيما يهب عقله الصنّاع، قد مازج بين المنطق والذوق ممازجة فريدة وحيدة، وألّف بين الجنبة العقلائية والنزعة البرهانية تأليفاً قد انفق غيره أعمارهم الزاهرة دون أن يخطر على بالهم، فضلاً عن أن يتحقق في واقع دراساتهم وبحوثهم.

ثانياً: الثورة على القديم من أوضاع الحوزة ومسارها واخلاقيتها التليدة، وقد أخذت هذه الثورة أبعادها على النحو الآتي:

أ ـ الثورة على الوضع الدراسي بشقّيه: مادة الدرس ونظام التدريس، وقد استغرق هذا الأمر الكبير من الشهيد السعيد فكراً طويلاً ووقتاً كثيراً، وخطا فيه خطوات مهمة واجهتها الصعوبات والمشاكل، وحفّت بها الأزمات والعراقيل، لكنها مشت بقوة الصواب والسداد، لا تحفل حتى أفلحت في أن تصيب حظاً كبيراً مما يؤمّله باريها ومبدعها.

ب ـ الثورة على القانون المألوف بأبعاد الحوزة عن شؤون التصدي لريادة الأمّة وقيادة المجتمع، وقضية الاستعداد لملء الفراغ الفكري والسياسي على هدى الإسلام، وحمل راية الجهاد على الطغاة والمستبدين، والمناداة بمبدأ تحكيم الشريعة السمحة، وقيادة الفقيه البصير العارف، وترتيب وضع الحوزة على حال تلائم هذا الدور الرائد، ويوفّيه مطالبه، ويتحمل أعباءه وآلامه.

فالحوزة ليست إلاّ مدرسة النبوة والإمامة، تنجب خلائف الانبياء والأوصياء الذين هم قادة البشرية، وساسة الناس، وأولياء أمر الأمة، وإن الحوزة يجب أن تكون فارس الإسلام الصائل الذي يذب عنه العاديات، ويدفع عنه الارزاء، ويصونه عن الأذى، ويرفع لواءه الوضّاء، منطلقاً به يخفق بأنواره في أرجاء المعمورة، يجلو دياجيرها وعشاها، ويمحو تيهها وعماها، ويهديها مواضع الرشد في خطاها، ومن هنا دعا الى أن تواكب الحوزة الحياة الصاعدة، وأن تتطلع فيها بعمق، وأن تتعرف كل عظمة الاسلام، ليمكنها من ذلك أن تردّ كيد التيارات الوافدة، وتبطل مكر الحماقات المستشرية، وتفضح الزيف، وتسقط الأقنعة، وتبدي الحقيقة الناصعة أجلى من الشمس، وتشرق بها على الدنيا شروق صبح مسفر. وكان هنا في ثورته على المنهج الدراسي قد دعا الى أن يُطرح في الحوزة من

الدروس ما يتماشى وروح العصر، وما يمكّن الحوزة من مجاراة الواقع، والتصدّي لصياغته صياغة اسلامية، بوعي شامل كامل (كل معالم الحقيقة واضدادها)، (الإيمان والالحاد)، (الإسلام والنظم الأخرى)، (تفصيلات الشريعة وأحكامها)، (القيادة الرشيدة والقيادات الزائفة).

وقد دارت كل مساعيه الميمونة وكتاباته المباركة في فلك هذه الشؤون الكبيرة، وتمحورت لها، وتمحّضت جهوداً جبارة في اطارها، فجاءت بالعجب العجاب.

ج ـ الثورة على الكيفية والطريقة التي ترتبط بها الحوزة بالأمة، والاسلوب الذي يتم من خلاله وصل الناس بالمرجعية، ونوعية الأفراد الذين يقومون بهذا العبء العظيم، وهم رسل الحوزة الى الساحة، ومبلّغوها فيها، واسلوب تعامل هؤلاء مع الجماهير، فحيث كان الوكيل هو ممثل المرجع المعيّن، يتحدث باسمه، وينشر فتاواه، ويجمع الحقوق الشرعية له، ويقتات من احسان المحسنين، على دأب واحد من عمله، هو إمامة الناس في الصلاة، وبيان الأحكام، وحل مشاكلهم التي لا ربط لحلها بالمؤسسات الرسمية، وانجاز العديد من أمورهم التي تحتاج الى الرأي الشرعي، وجمع اخماسهم وزكواتهم ونظير ذلك مما لا يعدو هذه الدائرة الضيّقة التي اعلن الصدر أنها الجزء الضئيل الهامشي في الدور الحقيقي لرسول الحوزة الهادفة وممثل المرجعية الرشيدة، وأن هناك الشيء الأهم في ذلك الدور، وهو التصدي القيادي نيابة عن قيادة المسلمين التي بعثته وكيلاً عنها، والتمهيد لعملية التغيير الكبرى، وطرح البديل العظيم.

وهذه الوظيفة تستدعي رجالها الأكفاء الذين تسلّحوا بعمق الإيمان بها، وعظم الإدراك للمسؤولية، وآمنوا بالهدف الأسمى، وتدرّعوا بالوعي الكبير بدينهم، وبما

يحيط بهم، وبشؤون مجتمعهم، وهذا لا يكون إلاّ حين تكون المرجعية التي تبعث رسلها الى الناس مرجعية رائدة، متصدية، واعية، بصيرة، مؤمنة بالتصدّي، مستعدة لتحمل أعبائه، غير حبيسة في طوق الفتوى، والبحث الخارج، والصلاة إماماً، وجمع الحقوق الشرعية، ولَمِّ شمل الاعوان والحاشية والمريدين، وترتيب أمورهم، والقيام بالمشاريع التي تدعم الوجود الخاص.

وكان (رض) يوصي الوكلاء لحفظ شخصيتهم واعتبارهم في جماهيرهم ألاّ يقتاتوا مما يهبه لهم المحسنون، ولا ينتظروا من الناس اسباب عيشهم، إذ أنّ المرجعية يجب أن تؤمّن لهم هذا الأمر اللازم، وأن تعزّز مقامهم في الأمّة بترفعهم عن الاحتياج المادّي اليها.

وكان يعطي وكلاءه ما يكفيهم لتأمين عيشهم، واعانة المحتاجين من ابناء مناطقهم، وكان هذا أمراً رائعاً لوى عنق العجب اليه، ومنح من فضله الوكلاء العون على أن يحفظوا عزّ شخصياتهم ودورهم من أن يذال بالافتقار الى ما في أيدي الناس.

د ـ الثورة الاخلاقية: لقد كان الوضع الخلقي للمرجع الشهيد ثورة على القديم المألوف في الحوزة، وكانت فضائله قدس الله نفسه الطاهرة انتفاضةعظمى هزّت رُكام المعتاد الجاثم على سمعة الحوزة واعتبارها، فانبعثت من تحته شخصية جديدة إسمها (المرجعية المؤهلة للقيادة، المتصفة بصفات القادة الصالحين السائرين على خط أهل البيت)، وقد حفدت القلوب مشوقة والهة الى احتضان هذه المرجعية، والذوب في تقديسها واجلالها، واستذكار الملامح النورية لأسوتها واصلها، وإبداء الاهبة الكاملة لافتدائها، والتضحية في سبيلها على طريق هدفها.

لقد اشرقت تلك المرجعية بخصائص الزهد في الدنيا، والانصراف الى شأن الجهاد، واعلاء لواء الإسلام، والاهتمام بشؤون القضية الإسلامية الكبرى في العالم عموماً وفي العراق خصوصاً، والتواضع الفريد الذي شهد له بأنه عظيم النفس، إذ هو يرى أن الشخصية الكبيرة إنما تعظم بشموخها الذاتي، ودواعي العظمة الواقعية، لا بالعناوين والألقاب والمظاهر، فكان ابغض شيء اليه أن يرى من مشاهد التعظيم له، او يسمع من كلماته، حتى أنّه كان يأبى أن يسجل على كتبه التي يزهو بها الفخار، ويتوّج بها رأسه - غير اسمه المجرد، دون زوائد يراها لغواً فارغاً تمقته نفسه العالية المترفعة.

وإذا أحست النفس الصدرية العظيمة المدركة أن لها ما يميّزها من غيرها من خلال العظمة وشمائلها، عظمت فيها روح المسؤولية فزادتها أملاً وهمّاً وسعياً، ونشطت همّة الشكر والثناء لواهب ذلك العطاء، وزادتها خشوعاً وضراعة وانقطاعاً، فأنّى لها بعد ذلك أن تنازع الله رداءه، أو تستعلي على عباده، وقد أمرت بخفض الجناح لهم، حين ائتمنت على استصلاحهم وهدايتهم؟

كان من سجايا مرجعيته الكريمة الانفتاح على ابناء الأمة على مختلف اوزانهم وأقدارهم، والحديث البشوش مع صغيرهم وكبيرهم، ومخالطتهم مخالطة الأب الشفيق الرؤوف، يحنو عليهم، ويسعهم بأخلاقه الرفيعة، ويسقيهم من معين الطافه وشفافيته، وخفض جناحه ـ كؤوس الارتياح والانشراح، لم يحجبه عنهم حاجب، ولا اسدل بينه وبينهم ستار، ولا طوّح به عنهم طلب الراحة ونشدان العافية، فهما مقرونان برؤيتهم وراحتهم وعافيتهم.

وكانت سجية المعاناة في سبيل الله للقضية وللأمة، وخوض غمرات الآلام،

وتجرع مرارات التهمام، ومكابدة أغلال المعاصم وأطواق السجون، وسماع قاصف الوعيد والتهديد، والملاحقة والمراقبة ومطاردة الاتباع والاشياع، كل أولئك كان دليل الاكبار الى نفوس الناس يحتازها لهذا المرجع المكابد.

(قد جفا الراحة مذ رآها عناء دينه ومتاع الغافلين، وقلا العافية مذ أبصر فيها بلاء قضيته وحلية طلاب الدنيا، وباين الأمان والقرار حين أحس أنّ قضيته مروعة مكروبة).

وكان مَعْلَم الشجاعة والاقدام من معالم عظمته الشخصية التي حببته الى القلوب، وامكنته من أزمّتها. فقد كان جريئاً مقداماً باسلاً يصرخ في الباطل، ويزعق في وجه الفتنة، وينادي برفيع النداء، يدعو الى هدى السماء، ويحرّم طريق الظالمين، ويجعله من الركون الشائن والغي المبين، ويفجر رعوده المزمجرة في الطواغيت تصك أسماعهم، وتهز عروشهم، وتنأى عن عيونهم بطيور الكرى في سهاد مرٍّ ذميم، لا يبرح ولا يريم، ويغرقهم في خضم الأهوال حين يعلن النصرة والولاء لدولة الإيمان التي قامت على ثرى ايران، غير هيّاب من غبّ ذلك، وهو يعلم أنّ فيه مضاعفات الأوصاب والاتعاب، وأنّه المرشد الهادي الى قعر الزنزانة، أو عناق السيف، او مساورة الكربات والنكبات.

كان ذلك الثائر أبياً رافضاً لا يذعن للظلم شيئاً من الاذعان، ولا يلين للبغي نزراً من اللين، ولا يداهن، ولا يصانع، ولا يضارع، ولا يحابي، ولا يداجي، ولا يتّقي كغيره، إذ التقية عنده أكبر المناهي والمحرمات، وغدت المجاهرة بالعداء والسطوة أعظم الفروض والواجبات، ولا ينزغه التسليم بنزغ يستعيذ منه بالمقاومة والثبات، وإن فعل فحسبه هذين ملاذاً ومعاذاً. ولا ينفث في نفسه بَرْد

الاعطاء باليد وسواسَه، فبيعته للإباء الطفيّ في حماسة عاشوراء بيعة واثقة لا تنكث.

لقد شُغِفَ الأباة الاحرار بهذه السجية الصدرية، ودانوا لصاحبها معظمين مبايعين، وأولوه الإكبار الفرد والوفاء الذي لا شفع له، ومشوا قبله وبعده على منهجه الى السجون والمقاصل، كأنهم الرواسي الشمّ رسوخاً وثباتاً، فقد تأسّوا فأحسنوا التأسي، واحتذوا مثاله فأجادوا الاحتذاء.

وكان في صفاته الباهرة (طاب ثراه) أنّه مرهف الحس الإيماني كأنّه مذاب احاسيس.

شفيف الشعور رقراقه لله وللمحرومين.

واثب القلب للانفعال والتأثّر لحال الإسلام والمسلمين كأنه لم يعرف التجلّد والاصطبار.

غزير الدمعة لنكباء الأمة وحوازبها، كأنّ دأبه تهتان ماء الشؤون.

فائر الزفرة تتلظى بين جنبيه وقدُتها.

سريع العبرة، كأنه قد اضطمت جوانحه على قلب والهة ثكلى، يحرك الشجن المستفحل، يستثير المآقي، ويحفزها الى البدار.

وحين تراه كذلك تعجب منه، وله، حين تراه في مواضع أخرى عصيّ الدمع، رابط الجأش، صخري الاحساس. وحين تسأل الحكمة البالغة عن المغزى تجيبك (إنّ الصدر ذوب شوق وضراعة، وضرام عشق وعرفان، وانمياث حب ووفاء لربّه ودينه وأمته، فماله لا يبكي ويأسى، وتحترق أحشاؤه بنار مشاعره وأحاسيسه المرهفة؟ وهو مع ذلك منتهى إقتدار الامتناع على الحزن والأسى،

عيّت به سطوة الشجون، وغاية سعي القسوة الأبيّة، والعناد الرافض، استعصى حتى على ريب المنون، ووَسِعَ هذا الفضاء الممتد جموداً وتجلداً وبعداً عن التأثر والانفعال، خوف غب الشماتة من الأعداء، والمساءة للأولياء، وحيث يكون ذلك هو مصلحة الدين، وغبطة القضية، ورغيب السياسة الواعية المدبرة، ومطلوب فرض المؤمن أن يكون بإيمانه واحتسابه وصبره وقوراً في الهزاهز، صُلْباً في العاديات، جميعَ الفؤاد في المحن، ساكن النفس في الكربات، لا يذل عزمه للفواقر المنكرة، ولا تلين قناته حتى لما يذيب الجلاميد من الخطوب).

إنها الحكمة الصدرية التي تدري ببصيرتها الثاقبة كيف تصنع المواقف، وتجسّد الأحاسيس في مواضعها، وتصيب في حسن تصريفها وتدبيرها مواطن الرشد والسداد.

وإذا ظاهر هذا غيره من فضائل الإمام الشهيد ومحامده التي طلعت شموساً زاهرة كان ذلك أدعى لبيان حقيقة تلك الثورة الصدرية الباهرة التي صنعتها شمائله السامية، وسجاياه العالية في وجود الحوزة العلمية.

مسلك العارفين

(نقصد في هذا المسلك أنّ المولوية الذاتية الثابتة لله سبحانه وتعالى لا تختص بالتكاليف المقطوعة بل تشمل مطلق التكاليف الواصلة ولو احتمالاً، وهذا من مدركات العقل العملي، وهي غير مبرهن عليها، فكما أنّ اصل الطاعة للمنعم الخالق مدرك أوّلي للعقل العملي غير مبرهن، فكذلك حدوده سعة وضيقاً...).

هكذا عرّف الصدر الاصولي البارع مسلكه الفذ في الاصول (حق الطاعة)، أمّا ماذا قال الصدر العارف عن فلسفة هذا المسلك؟

قالت روحه: ان للمحبوب ذوب الطاعة، وفناء الانقطاع والتعلق، وانصهار الوله والهيام، ليس في الصبر على الواجب وعن الحرام فحسب، بل في عصمة تحاكي عصمة الانبياء الكرام الذين عرفوا حرمة الحق فأدَّوْا حقيقة الفرض.

قال قلبه: إنّ البحث عن برهان حق المولى كالبحث عن دليل المسلَّمات والضروريات، ولا يفعل ذلك إلاّ من سَفِه نفسه، وضيّع حظه من الرشد ومسكة العقل.

قالت نفسه المتيّمة: إنّ همّ العاشقين النأيُ عن مكروه معشوقيهم، والسعي إلى

إرضائهم، فكيف بمن عشق سيد الكائنات، وربّ البرايا، وبارئ العشق، ومن دنّف بهواه قلوب العارفين.

وقالت هيبة الباري في قلبه: إنّ حق مهاب الكون في الطاعة لا يقاس بحق أي مهابٍ سواه، تلتمس عنه المعاذير، وتقبل فيه التبريرات، ويلاذُ عنه في ظل المندوحة والسعة، وان خشية قاهر الوجود ومن بيده المقاليد لا تقاس بخشية العبيد المقهورين والارقّاء المربوبين التي قد يُستهان بها، وتطلب المخارج عن لوازمها بالعصيان، وتقحّم الشبهات، أو بالاوهام والاحتمالات.

وقالت نفسه المبرّأة من معابة ألواث الحب وأدرانه اذ لا تحتمل غير الصفاء والنقاء في الهوى العجاب: إنّ صدق الحب هو في طاعة المحبوب كما هو اهله بحكم عقد الهوى المقدس في القلب الصادق الذي ينشد الذرى في الكمالات، ويطلب المعالي في منتهى الدرجات، فمن كَذَب الحب أو فرّط فيه فقد أبطل العقد، وبتر العلقة، وأوهق نفسه في ذل الاستهانة والاستخفاف.

وهكذا قالت مشاعره المنسابة الصافية كسلسبيل زلال من عين قلبه الدافقة بالهوى الاقدس الغلاّب.

وقالت أمانة روحه الخالصة المنقاة نقاء التِبْر من اشوابه قد صفّتها نار المجاهدة والاصطبار في حمل الأمانة: إنّ لؤم البشر في ان يقيسوا سجايا التعامل مع المخلوق بسجايا التعامل مع الخلاّق، وذلك هو الظلم الذي لا يغتفر بحكم العقل الرصين الذي يعرف بنظره الصائب الثاقب بُعدَ البون بين حق الخالق وحق المخلوق في الاجلال والاكرام، وفروض التوقير والاعظام.

وكم يخطئ البشر حين يقيسون متطلبات المولوية العرفية والعقلائيـة بمتطلبـات المولوية الحقيقية، فيجعلوا فـروض المـولى الحـق علـى العبـاد كفـروض المـوالي الاعتباريين فيما يظنّـون أو يحتملون من تكاليف.

لقد قال عرفانه الفذّ الشامخ لإتباع (قبح العقاب بلا بيـان) إنّ الحـقَّ الاعظـمَ لمدبرِ الوجودِ (حق العبودية والشكر، وأداء فرض الطاعة أتمّ الاداء واكملـه) هـو البيان الناجع، والإعذار البالغ، وبه كمال الحجة وتمامها على العبيد الذين فطـرهم بارئهم على اللهوف اليه، فألزمهم حق تقاته، وابتغاء مرضاته.

ولا يكون ذلك بلزوم درب المعاذير للبراءة فيما عدا المعلوم من الزاماتـه، بـل إنّ فرض التقوى يهتف بالاحتياط الرفيع، فـان أجابـه وإلاّ ارتحـل إلى مهـاوي التفريط والتضييع، نادباً حظه عند العباد المستخفين بحرمة ذي القوة المتين.

مسلك الحق هذا عبقة القلب العارف تضوّعت في عالم الاصول، صيّرها الصدر نظرية أصولية استخدمت أساليب الاستدلال، بعـد أن فاحـت مـن روض الهيـام الأسمى في معاني تلك الروح الزاكية لهذا الإنسان.

مسلك الحق هذا هو حقيقة التقوى الصدرية تهفو إلى عصمة الطاهرين بالطاعة والانقياد المتين وهو أسُ مجده الفقهي بناه بروح الخشية واليقين.

من قال لعقل الصدر يعاف سنة السلف الكرام التي رتعت في نعـيم الـبراءة في منأىً عن قسوة الاحتياط، ووعثاء الاعتناء بمحتمل التكاليف ومظنونها؟

ومن قال لفكره يتنكّب جادة الاقدمين من أعاظم العلمـاء وعمالقـة الاصـول الذين رأوا في قبح العقاب نهج الحق،و سماحة الإسلام، وروح الشريعة السهلة؟

ومن قال لعبقريته الفذة التي نطقت لها شاهدة بالاقتدار شواهد جمة من شموخ الفهم، وغوص الفطنة، وحذاقة التفكير – تتجافى عن المألوف الذي درسه، وراى فيه نهج الحوزة، وسلطان مسلماتها؟

من قال للصدر ذلك كله غير قلبه المعمود الذي ما فتئ يترنّم بتراتيل الهيام، وغير روحه المشوقة التي احتبلها العشق فلا معدى لها عن الانقياد حافدة خلف داعي الهوى يدعوها فليس لها أن لا تجيب؟

وماله بعد ذلك إذا هو اجاب نداء الغرام الالهي أن لا يعاف مسنون الماضين، وفي قلبه اليقين العارف يقول له: دعك من غير ما حقّقه الفؤاد من أوهام العقول، وذرني ومن يعرض عن مسلّمات القلوب التي هي الدليل على غيرها، كيف يريد لها برهاناً وهي برهان ما سواها؟وكيف يروم معرفة كنهها، وبها يعرف كنه ما عداها؟

حين يحلِّل العاشق المستهام قضية الوجود الكبرى، ويردُّها إلى أصلها يراها (بارئاً معبوداً ووجوداً عابداً) ألزمه حق المولى بالطاعة بما المعبود أهل له منها، وما هو اهله صدق الطاعة وتمامها في نظر القلب الذي لابدّ له أن يحتضن جلال البارئ وجماله، ينعم من ذلك في رياض السعادة الحق للقرب المأنوس وسُبُحاته.

ومصداق صدق الطاعة وكمالها لا يطلع إلاّ من أفق القطع سراجاً منيراً يقشع ظلمات الظنون والشكوك في اداء أمانة التكليف بلا خسرٍ ولا تفريط، وهذا هو الذي يُسميه الصدر العارف (مسلك حق الطاعة) وبعبارة ثانية (مهابة البارئ وخيفته واحترامه لحق عظمته ومجده، واجلاله لحق سلطانه وجبروته، والتعلّق به

لحق عزته وقدرته، ومراقبته لحق احاطته وحضوره، وأداء فرائضه كلها بقدر حق مولويته وسيادته، والأمل لرحمته بمقدار الخوف من عقوبته، وحفظ حقوق الإلهية بمقدار ذلّ العبودية، والهرب من سَخَطه الى مرضاته بمقدار التوسل اليه بطاعاته وقرباته، والحذر من الوقوع في خلافه ومعصيته لجبروته وسطوته، وطلب الحظوة لديه بكمال الانقطاع اليه، ونشدان ما عنده من كرامة الآجلة بشفاعة التقوى في العاجلة، ونصرته بلزوم هذه للانتصار بحوله ورضاه، واقراضه من عطائه وماله، للاستغناء بفضله ونواله).

(مسلك حق الطاعة) مسلك العبودية الكاملة، وطريق التقوى والاعتصام بذمام الاحتياط، وصون النفس عن الوقوع فيما يسخط بارئها والمتفضل عليها، واي امر يفهمه المتدبرون في القرآن والشريعة غير هذا الأمر الكبير الذي هو مخُّ العبادة وروحها؟ واذا كانت الخليقة قد وجدت للعبادة، فإن طريق التقوى وكمال العبودية هو قلب الهدف من النشأة الأولى، ولا يُنال ذلك إلاّ بالتماس الذرائع لرضى المعبود، واجتناب السبل إلى ضدِّه.

وكمال ذلك وتمامه بإتيان حتى محتمل مطلوباته، والانصراف عن محتمل منهياته، لحقه الاعلى في أنْ يُطاع اتمّ الطاعة، وأن لا يستهان به كما يستهان بمخلوقاته، وأن لا يعامل وهو المولى الحق بما يعامل به الناس بعضهم بعضاً، فما بين الاله والمألوهين من مدى الفرق لا يُدرك بفهم، ولا ينال بعلم.

واذا اختصرنا الفواصل بين غاية الخلق (العبادة) ولازمها الاكيد (الاحتياط) كان (مسلك حق الطاعة) هو الهدف.

إنّ وجدان الصدر يقول له: أنّ العاقل لا يرضى أن يساوي بين العبيد ومعبودهم في الحقوق، وطبيعة التعامل وأساليبه، ووسائل طلب الرضا والمحبوب، واجتناب السخط والمكروه، فيتيه سادراً في إغماض البراءة، وتسويغ عدم البيان، ومعاذير التكافؤ بين المولى الحقيقي والموالي الاعتياديين في حق الطاعة عند الارتياب، فيقعد مكبلاً باغلال تلك الأوهام الساهية دون حسن الاداء لكمال المطلوب من فروض ربٍّ السماء.

وكأنّ ما يعتذر به البشر فيما بينهم مما تعارفوا على قبوله من الاعذار، واصطلحوا على قبوله من وسائل فراغ الذمة، تفك عنها طوق الاشتغال، وبقاء الفرض في العهدة - يصلح أن يكون عذراً إلى سيد الكائنات ومالكها بما تتضمنه سيادته الكبرى ومالكيته العظمى من هيبة الالوهية الداعية إلى رعاية حق المهاب بمقدار هيبته، وحفظ حمى الاحترام من معرّة التجاوز والانتهاك، وصون مجد التوقير والاكرام من أن يذال، والذبّ عن راية العبودية التي يجب ان تنتصر بصدق الطاعة، لترتفع شامخة على هامة الظفر في معركة الابتلاء.

مسلك الحق هذا طريق الاصفياء الذين يحوطونه من ان يضيّع بالتجافي عن المكروهات، واستباق المستحبات، واستقصائها لمعرفتها والعمل على نورها، فاذا قصروا في الحياطة عدّوا أنفسهم ظالمين، وطلبوا عفو ربّهم، لأنّهم لم يصونوا أمانة الواجبات والمحرمات معلومها ومحتملها، حين تجاوزوا السياج الذي نُصب دونها (سياج المكروه والمستحب)، ولم يقفوا بعزم الصابرين عند حدود العرين المقدس للفرائض التي أراد الله أن يدفع عنها لوث الامتهان بما دونها في حبِّه وبغضه،

وإلزامه ونهيه، مما احب أو كره من الوان دأب اللسان والأركان.

وحين يكون منحى ذلك العارف العملاق هو منحى (حق الطاعة) فلا ريب أن يكون سلوك صاحبه متناغماً مع الاعتقاد، مصبوباً في قالب المنهج، ليكون عسجد الاعتصام الذي يُصفّى بنار مبدأ الاحتياط فيخرج أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء.

ولابدّ أن يكون دأب الرجل تركاضه في دروب الغرام الآسر يبحث عن حبيبه بالوسائل، وينشد قربه بالمصاديق، ولا يغادر صغير المحبوب ولا كبيره لذلك المعشوق إلاّ أحاط به سعيه ونصبه، وحالفه جهده وتعبه.

فلا عجب أن يتفرّد في الدأب والفضائل من تفرّد في النظر إلى حق ربِّه.

ولا غرو أن يكون وِتْر الصلاح والمجاهدة والعقبى من كان وتر الاعتقاد بحرمة المولى العظيم ممتدة امتداد المهابة، فريد الرأي فيما للباري على عباده من الحقوق والواجبات مندلحة تتسع لكل التكاليف على أفانين الوصول.

فأنّى له أن يلتقي جفناه بنوم وهي حرمة المولى يطلب حفظها حثيثاً؟

وأنّى له ان يجانف السهاد الشريف وهو حق ربّ العالمين قد عشقه عشق الالتزام؟

وأنّى له ان لا يهطع مشغوفاً بعقبى الاعتصام بحبل (حق الطاعة) إلى المنحر المقدس الذي يقضي عنده شهيداً للحب والوفاء، وقتيلاً للصدق في الولاء.

الهم المقدس

لماذا أسهره الحب؟ وايٌّ حب أسهره؟

لماذا دنّفه الوجد؟ وأيّ وجدٍ دنّفه؟

لماذا أرِقَ الليلَ الطويلَ يسامرُ النجومَ المثقلاتِ في نَدِيٍّ الدموع والآهات؟

لماذا مزج الروح اللهوف بندى السَحَر الهامس في سمعها بترانيم الخلود؟

لماذا أذاب القلب الواله في مصهر يتلظّى بحرٍّ الأشواق الطهور ينشد منتهى لذاته في غاية إحتراقه؟

لماذا عاف بسمة الأيام، ونضرة الاحلام، لكلوح الآلام، وعوسج التهمام؟

لماذا أهبط النفس من ذرى هواها حيث الأماني الوردية تبسم عن ثغر الطموح؟

لماذا نسي نفسه لغيره حتى أوشكت أن تظلم، ونذر وجوده لشيء إسمه (الأمّة) فكابد للنذر أهوال الحياة، ولم يجد مندوحة للتحلل بكفارة المعاذير والتبريرات؟

لماذا ضحّى بأمجاده الزاهرة بألق العزّ والكبرياء في علياء الشموخ، كأنّه حرام عليه ما أباحه غيره لأنفسهم، فرتعوا في روضاته وادعين ناعمين، وذبّوا عن الوسن الأخّاذ في أحضانه بما أوتوه من قواهم وقيمهم؟.

بيته الذي صيّره نصبه المقدس، وهمّه الشريف قبلة القلوب، وكعبة الأرواح،

صيّره عشقه الاوحد للإسلام مباءة الهموم، ومرتع الحسرات، قد أحلسه الخوف، وطوّقه السيف، فليس ثمة كوة ينفذ منها نسيم الراحة، ولا ثغرة يعبر منها شميم الأمان.

النفوس الشريفة التي كان لها عليه حقُ الرعاية في هذا البيت لم تشرب إلاّ كدر الحياة الدنيا ورنقها، ولم تطعم إلاّ جشبها ومرها، ولم تلبس إلاّ قسوتها وسوءها، حين دلّها هاديها على فلسفة (الضد) ملقياً في روعها وسمعها في وحي واصب ونداء متصل (إنّ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة).

تلاميذه الذين جذبتهم إليه جاذبة الخلق الرفيع والعلم البديع، لم يجدوا عنده ما يجده غيرهم لدى سواه إلاّ افكاراً حوزوية متعالية، مازجتها أفكار أعلى من (علم القضيّة)، وإبداعات علمية محيِّرة إعتنقتها إبداعات أسمى من عطر الدم الفوّاح، وعبير أغلال المعاصم. وكانت بسمة فتوحاته الفكرية الطافحة على وجهه ملفعة بثوب الأسى الأسفع، وقلبه الأسيان قد أخذت عليه هموم الإسلام القدسية أقطاره.

وعاد درسه وعلمه طريقاً إلى الهدف حفّت به الخطوب النكر على اثباج الشجى في بحر لُجّيٍّ هادر يغشاه موج من فوقه موج، كأنّ أواذيه رؤوس الشياطين، وكأنّ أعماقه هول الموت، ورعب القبور.

وترنم الصدر يقود قافلة الصابرين، يهزج بأناشيد المكارم، يشنّف سمعها بالنغم الآسر، ويسكر قلبها بصهباء هم الوصال، ويسحر عينها بأبهى مرأىً لعقبى الاصفاد (شرف الحياة وبهجة الأمجاد).

ومشى على الدرب الشائك المتلظّي، يحرقه الجمر فلا يجد له إلاّ لذّة فاقت الوصف لأنّها لذّة العارفين، وتَخِزه الاشواك فلا يحس إلاّ ملمس الانس والحبور، وتشتجر عليه السيوف والرماح فلا يرى إلاّ عرائش الجنان، وخمائل

النعيم، وتتكثف فوقه ظلمات التبريح والايلام فلا يبصر إلاّ ضياءً خالباً من سراج قلب عارف منير، إذا اشتدت عليه دياجير المحن تألّقت أنواره، واشتدّ سطوعها.

وفي الليل الأيهم يعظم سلطان الضياء، ويعرف قدره.

هدير الرعود كالانغام، ودوي الحرب كأهازيج السلام، والوعيد الغاضب كهدهدة الأم الرؤوم، وزعزع الأعاصير نسائم فاحت من أحضان الرياض بأروع الشميم، وحمم البراكين المنهدّة من قلب الحقد الفاجر، نفحات سكينة وادعة بلطف غامر.

لقد غيّر قلب الصدر الأحاسيس عن الحياة كما غيّر فكره مفاهيم الواقع، وابتدع لها شعورها الجديد، كما ابتدع عقُلهُ نهجَها الفريد، وعاد قلبه يراها بعين عرفانه الأشم، كما عاد لبّه ينظرها بباصرة رأيه المجدّد الاعظم.

فعادت الحياة لدى الصدر ثورة الفكر والابداع بأبهى حلل الفلاح، وثورة الجهاد والتضحية بأروع لذائذ الفتح.

فبماذا يعالج الأعداء هذا الداء العياء؟

وبماذا يكبلون لذّته ، ويأسرون بهجته؟

وبماذا يعذّبونه من وسائل العذاب حسيّاً ومعنويّاً مما يشُلّ القوى، ويسلب القدرة، ويُديلُ الهمود من الانطلاق في الباحات، وينتصر من الإخلاد إلى الارض للتحليق في آفاق الهمم والتضحيات.

لقد كانت مصيبة خصومه في فكره العملاق الرافع الذي استمطر شآبيب العظمة في فكر الإِسلام شموخها وجدِّتها المتصلة فجادت بغيث أنعش الارض الموات لواقع أمّة تحجر في مفاوز الحجب والإقصاء عن لطف السماء. فازّينت تلك الأرض بأزاهير الفكر المبدع الخلاّق، وتشممت العقول عَرْف الحقيقة القرآنية التي

حجبت، ورنت القلوب إلى جمال الروح الإسلامية التي أقصيت، فثارت العقول ثورة الرفض للواقع هادرة كالبراكين، وانجذبت القلوب بسحر مارأت جذباً لا يحول بينها معه وبين المحبوب المطلوب حجاب مستور، ولا سيف مشهور.

سَلِ الصدر كم داهمته المروّعات فما ارتاع؟ وكم هجمت عليه الخطوب فجالدها بالاحتساب، فارتدت على الاعقاب؟

وكم تجهَّمت في وجهه الدنيا الحرون، وأعوانها الجاهلون، فلاذ بالصبر الحنظلي يداوي به داء الجفاء، واعتصم بالحلم المحمدي يثاور به طيش السفهاء؟

سجايا ورثها من آبائه الاكرمين عبر الاصلاب والارحام، وعشقها فالتزمها لانها تسمو به كما سمت بآبائه في المفاخر إلى أعلى مقام.

هكذا يخلق الله ما يشاء ويختار لأمانة الرسالة ولوازمها من الأذى والاحتمال. قلوباً مقدّسة صخرية في الملمّات كأنها الحجر الجامس، وجسوماً مكرّمة يطيب لها معانقة السياط، وهمماً شمّاً ترنو إلى العزة القعساء، فما ونى بها فتور ولا قعد بها خوَر.

كيف ذلك ومعدنها ومستثارها نفوس خامرها العشق، وقلوب شغفها الله حباً، قد استعصمت بتوحيد الهوى فأوترت ولم تشفع، واستمسكت بعروة الاخلاص فنزهت سر السِّر عن أهون أغباشه، وتعلقت بحبل الوفاء فسمت به إلى كرامة البلاء سحّاً واصباً بلا انقطاع، دَرَاكاً متصلاً، ككفتي الميزان، لأنّ بلاءها على درجة إيمانها، وفتنتها على مقدار اذعانها، حتى ترقى على جناح المكاره المستصفية إلى مقعد التسليم واليقين، في غمرة النور المبين، للحق المكين.

أسوة العلم والعمل

ثمة امر في حياة الأمم من دهر الدهور لوجودها علـى الأرض، وهـو مـا كـرّ عليها الجديدان إسٌّ ثباتها ودوامها، وعماد رشدها وسـدادها، وركيـزة صـلاحها وفلاحها. به تحيا حياة السعداء، وبدونه تفنى فناء الأشـقياء، وقـد أثبـت تـاريخ البشرية أنّ هذا الأمر هو الاهم فيما تحتاج إليه في وجودها في معمورتها، والاكثر تأثيراً فيها سعادة وشقاءً في وجوده وعدمه، وأنّـه روحها، وسرّ الوقدة الالهية التي تنعشها في شوط الحياة، لأنه الهدى، بل قلبه الـذي بـين جوانحـه، وهـو عصـارة الرسالة وخلاصتها، ذلك هو (الاسوة الحسنة المربية) و(القدوة الطيبة الهادية) الـتي بهدى سلوكها يهتدي الناس قبل هدى لسانها، وبسراج فعلها يستنير الخابطون في الظلماء قبل نور بيانها، وبوحي تجسيدها للوحي تهتز الأمة للإيمان قبل اهتزازهـا له بالآيات والمعجزات، لأنّ الأمة لا تنظر في الرسالة قبـل أن تنظـر في الرسـول، وهي قبل أن تحقق في الهدى تحقق في الهـادي، وقبـل أن تعـاين محاسـن الرحمـة المهداة تعاين شخص من بُعث بها.

ومن هنا لم تسمع فتذعن لروعة الاعجاز في القرآن فتقول إنّه الحق المبين، قبل أن تسمع فتخشع لروعة السجايا الزُهْر في (محمد) فتقول هو الصادق الأمين.

ومن شأن الأمة أنّها لا تسلِّم مقودها إلاّ لمن يأسرها بفعاله قبل كلماته، ومن يستحوذ على قلبها بخصاله وعمله قبل مفاهيمه ومُثُله.

فاذا وجدت صدق الداعي صَدَقَتْه الاستجابة بلا شوب، وإذا أحست أمانة الدليل ائتمنته قلوبها وأرواحها بلا ريب، ومشت خلفَه مشيَ الاخلاص والوفاء، تبذل النفوس والدماء.

وقد فاز هذا الأمر الكبير (الأسوة الحسنة) بحفاوة الشريعة قرآناً وسنة، تأكيداً منها عليه، وحضّاً على التزامه وجعله مناراً، وطريقاً للهدى، وسبيلاً للخلاص.

في القرآن الكريم **(لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً).**

(لقد كانت لكم اسوة حسنة في إبراهيم والذين معه).

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده).

وفي السنة المباركة **(الا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه).**

(كونوا لنا دعاة صامتين).

لقد جعل الله هذا الدور المهم للقدوة في مسيرة البشر على عاتق الانبياء والهداة الذين يختارونهم معهم أو من بعدهم من الاوصياء والائمة والعلماء، يحملون اثقال ذلك الدور العظيم التي لا تعادلها إلاّ أثقال الرسالة، بل هي عينها ما دامت القدوة

تعني أن يكون صاحبها رسالة مجسّدة، ونهجاً مجسماً، وطريقاً إلهياً يمشي حياً على الأرض في وجود الإنسان الأسوة، فهو في منتهى الصون لنفسه عن المزالق والشبهات، يدعّها دعّاً عمّا يشينها ويسقطها في عيون الناس، ويزعّها عن أن تخسر عرشها في القلوب وسلطانها على النفوس، أو أن يفلت منها زمام الاقتدار على تحريك أهل ودِّها واجلالها إلى الهدف المنشود الذي جعلت له قدوة تقتدى ومثالاً يحتذى، فاذا دخلت ذلك الشين خسرت نفسها وربّها، وفقدت هدفها وأمّتها، ونالت الحرمان والعذاب، لأنّها نقضت الميثاق الغليظ الذي اخذه الله منها أن تكون منار الأمة في المتاهات، ودليلها في المفاوز، ورائدها في المسير، وهاديها على الدرب، ومنقذها من الفناء الحقيقي وذلك هو الضلال.

النبوة والإمامة تعنيان الأسوة والقدوة وكأنهما كلمتان مترادفتان.

فالهادي هو المقتدى، والدليل هو الأسوة، يعمل بما يقول قبل غيره، ويفعل ما يوصي به مستبقاً إليه من سواه، وينتهي عما ينهى عنه قبل المنتهين، ويأتمر بما يأمر به قبل المأمورين، ولا يدع خلّة حميدة يحبّبها إلى الناس إلاّ كانت لباسه وزينه، ولا يذر خصلة سيئة ينفِّر الناس منها إلاّ أبى أن تكون رداءه وشينه، فاذا به قد أصبح سلوكه ينطق قبل كلامه، وكلامه يعاضد فعله، وصمته يهدي كبيانه، وحكمته الناطقة منيعة الجانب، عزيزة بشاهدها الحي من عمله، وهديُهُ باللسان سالك الدرب إلى الافئدة بسلطان التزامه بهداه.

فليس هو بالذي يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، ولا هو بالذي كبر مقته عند ربِّه لقوله ما لا يفعل، ولا هو كالحمار حامل الأسفار لا يعي منها شيئاً، ولا يعمل

منها بشيء، ولا هو كالذي آتاه الله آياته وانسلخ منها فاتبعه الشيطان، وأخلد إلى الأرض فصار مَثَلُه مَثَلَ الكلب اللاهث إن حملت عليه أو تركته، بل هو كالشمس، غمرة نور تشع بالضياء، وكالروض محفل ورد عمّه الاريج، تضوّع عطره ينعش قلوب المتشممين، وفاضت زينتُه تؤنس أعين الناظرين.

واذا كانت الأسوة بهذه المثابة من المنزلة والتأثير فلا عجب أن يؤكد الصدر بلسانه داعياً نفسه وطلاّبه وأتباعه إلى أن يجعلوا من أنفسهم بعصمتهم لها، وحياطتهم لدينهم، وتهذيبهم لسلوكهم، أقداءً للآخرين الذين يؤثر فيهم عمل هداتهم قبل كلامهم، ويصلحهم سلوك مرشديهم قبل إرشادهم، ولو قرأوا عليهم فيه أبلغ الآيات والروايات، وإنّهم ليفرون منهم، وينأَوْنَ عن سماع كلامهم، إذا اختلفت اعمالهم وأقوالهم، ولو كانوا عمالقة الدنيا في النطق والبيان، وتنضيد الكلمات الحسان.

وأكّد الصدر على دور القدوة عملاً بأن عَقَلَ نفسه بعقال الاعتصام بحبل التقوى، آسراً لها أشدّ الأسر في زنزانة الصبر على الطاعات وعن المعاصي، ملزماً إِياها حتى بغير الفرض، نائياً بها عن غير المحظور، نشداناً منه أن يجعل نفسه إسوة للآخرين الذين أحبّوه وعشقوه وتابعوه، حين توسّموا فيه هادي الطريق، ودليل الركب، ورائد المسيرة.

وهذا فرضه الأكيد الذي يلزمه به دينه ودوره، ويفرضه عليه مشروعه التجديدي لخليفة النبوّة والامامة ووارثهما وهو (المرجعية الرشيدة)، المشروع الذي أراد ان يُنجِد ذلك الخليفة الذي خسر دوره السليم بالريادة الصالحة في

الأمة، والأسوة الحسنة التي يُحتذى على مثالها، ويُمشى على منوالها، في معركة حامية تكالبت عليه فيها من داخله وخارجه أدواء تركته رهين علله. فلا هو أدّى ما عليه لمن إستخلفه، ولا هو أمِن على اعتباره أن تصيب منه كراهية الناس في أنفسهم بسهام عجزه وآفاته مقتلاً.

وجسّدَ الصدر مصداق المرجع الذي يريده في مشروعه، فكانت خصال هذا المنقذ خصال العاملين، وكانت سجاياه سجايا الصالحين الذين عرفوا الله وحرمته وحقّ طاعته، وعظّموا للإسلام قدره وشأن أمانته، فنذروا أنفسهم صادقين لصون الحق، وأداء الأمانة. فكانت نفسه أسيرة ما تعلم قبل أن يفضي بعلمه إلى احد، وكانت روحه في غلِّ الالتزام قبل أن يدعو غيره إلى أغلاله المحررة، وكان سيِّد المتعظين قبل أن ينبس ببنت شفة واعظاً.

جاهد نفسه فانتصر، ثم دعا غيره إلى المجاهدة والانتصار، وغالب أهواءه فغلب، ثم هتف بسواه إلى مغالبة الاهواء.

لقد وحَّد الصدر توحيداً فريداً بين عقله وسلوكه، وبين قلبه وخطاه، قرن العلم بالعمل، والمعرفة بالسعي، فما باين بين مبادئه ومسيره، ولا خالف بين مفاهيمه واخلاقه، ولا نافرَ بين القول والفعل، ولا باعد بين وصايا اللسان ودأب الأركان، ولا اختص نفسه بالمندوحة إذ اختار لسواه العزيمة، ولا شدّد على من عداه وحبى نفسه بالسعة، وما أخذ على غيره عهد التقيّد ليَذَرَ نفسه سارحة بلا وثاق.

دعا أمّته إلى اعباء مسيره وكان اسرع منها إلى ما دعاها إليه، وناداها هاتفاً

للعمل للإسلام، ويداه توشكان أن تغلاّ بالكبول، وصرخ فيها للجهاد وقد صمَّم على الشهادة تصميم الرِّجال، ومشى يخطو على الدرب الدامية الحمراء يزعق فيه الحاقدون، ويدوِّي في سمعه قصيف الوعيد، وتقوم نصب عينه شجرة العداء كريهة مخيفة، ويجرّ إلى المعتقلات، ويُحاصَر في داره على حال ترق لها الجلاميد، فلم يتبدل حالَ الجهاد حالاً غيرها، ولم ينزع وسام شرفها، ليتخذ بدلاً منه وصمة الذل بالقعود والاستسلام بتسويغ من هجعوا آمنين من المعذِّرين.

في المسيرة التي كان يقود فيها الصدرُ الأسوةُ ركبَ الصلاح، كان دأبَهُ سِرَّ ظفره بالقلوب، وكان سعيُهُ معجزتَهُ التي قهرت النفوس فاعطته ازمتها.

وبعض سيرة الصدر التي استثرتُ عبير روضها الفواح في الصفحات الماضية هو بعض محاسن تلك الأسوة ومفاخرها في الالتزام الذي لا بدّ لها منه كي تكون مشعل الهدى وقدوة الصالحين على نهجٍ رسمه أمير المؤمنين: (من نصبَ نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم).

الحصار

وتشتد مع الامام الثائر حال العداء من عدو فاجر، وتؤوب هذهْ الحال إلى شرّ مآل، فتحيط به مخالب الطغاة الجفاة كأنها أنياب الحيّات، ويطلع عليه الشرّ بوجه منكر، فقد استغلقت إحبولة الصائد الظافر حتى أوشكت أن تسدّ عليهم منافذ النسيم لا تحور ولا تريم، وأوصدت في جوههم باب الحيلة للخلاص من هذا البلاء المارد الذي غزاهم بهوله في كل الموارد.

وكانت منهم معه حيلة العاجز الواهن الذي لا يقوى على مقاومة الحجة بالبرهان، فلم يألف الناس في ايام حكمهم غير السجن والسيف والخوف، تُخرسُ افواه الحجج الباهرة، وتقطع أعناق البراهين القاهرة.

وأغلقت الباب على الامام السعيد ليغدو سجين بيته، ورهين داره، لا يفارقها، ولا يُزار فيها، فصلاً بين الامة وإمامها، وتفريقاً بين المستضعفين وقائدهم.

وينظر الإمام حوله ويتطلع فماذا يرى؟

ويسمع الإمام ويتسمع فماذا يصل إلى اذنيه؟

لا يرى الإمام من حوله إلاّ جدراناً صمّاء خرساء قد تضمنتهُ وعياله كما يتضمن الوعاء ما فيه، واحضنت عليهم كما يحضن الجسم على أحشائه، وتشابكت أركانه محكمة عليهم كما تتشابك أركان السجن محكمة على من أُودِعوا فيه.

قد أوصد الباب فلا ذهاب ولا اياب، الحياة تصخب من حولهم وهم في الدار وادعون، ويعج الخلق بالنشاط في كل صوب منهم وهم في بيتهم ساكنون، ويتقلّب الناس في الأرض كيف يريدون وهم رهن هذه الجدران لا يغادرونْ. قد أعلقتهم أوهاق الطاغين فلا منجى، وأحتبلتهم أشراك الجناة فلا حيلة، وعيون الجبّارين ترصدهم وهم في الطوق الخانق، وتحصي عليهم كل شيء وهم في الطوق المبرم، إنّهم يخشون ألاّ يكف الإمام عن علاقته بأمته، وألاّ يقطع إرتباطه باتباعه، وألاّ يمنعه ضيق حبسه، وفرط الحرص على عزله عن أمره المحذور وشأنه المحظور، وقد قرأوا في تاريخ أجداده الميامين أنهم لم يفارقوا أتباعهم قط وهم في المطامير، ولم ينفصلوا عنهم وهم في الخطب العسير. لقد حسبوا أنهم قد عالجوا الداء بغاية الدواء، ولم يعلموا أنه النور لا تحتويه قبضة كف، وأنها الحقيقة لا يضمّها سجن، وأنه القائد المعشوق تأتيه أشواق القلوب إن عجزت أن تقبل عليه بأنفسها.

ولقد كان للصدر مع أمته في محنته لقاء.. ولقاء.

ينظر الإمام من حوله فيرى عياله قد حرموا الطلاقة مكبلين بأصفاد الحصار والمراقبة، يتجرعون كؤوس المرارة من قيودهم هذه لا يكادون يسيغون صابها، فاذا نالوا منه قطّع أحشاءهم، ويحترقون بلظى الغمّاء من حبسهم، تُنضج قلوبهم

لا جلودهم، ويخوضون غرقى في اللجج الغامرة للعناء القائم تتقطع فيها أنفاسهم.

إنّها وحشة مبرِّحة بثقل الجبال، وانقطاع عن الحياة والاحياء كودائع الاجداث، وسكون متِّصل رهيب كأنه سكون القبور، وصمت مطبق ثقيل الوطأة كأنه صمتها.

وأنّى يطيق العزلة من كانوا في غمرة الحياة هداة مصلحين؟ وأنّى يحتمل الأسر من كانوا يعلِّمون الناس معنى الحرية؟ وأنّى يقر على ضيم القيود من دوّت لهم في الفضاء صرخة الرفض والاباء؟

بلى أنهم يصبرون ويطيقون فما خلقت الاغلال إلاّ لهم، وما عرفت الكبول معاصم سواهم، ولم تألف السجون غيرهم، وذلك هو المعنى الأعلى من معاني حريتهم، وتلك هي المنزلة المشهودة لأبائهم، وذلك هو المقام المحمود في جهادهم. فما كان هذا ليزيدهم إلاّ رضىً به، وشكراً لبارئهم عليه، لانه من كراماته ومواهبه لهم، وعطاياه وبركاته فيهم، وتحننه وافضاله عليهم، ولانه اختصاصهم دون من سواهم، واصطفاؤهم دون من عداهم.

لكن الإمام ينظر فيرى في عياله من أفلاذه من لا يفهمون هذه المعاني السامية، ولا تطير حلومهم إلى حقائقها العالية، فكيف لهم أن يصبروا على ثقل القيود، وهم ورود ناضرة؟ وعلى وطأة الصدِّ عن فسحة الدنيا وهم براعم حالمة عهدها جديد بالحياة؟ وعلى قسوة المنع من معاشرة الأتراب والاصحاب ولا حاجة لهم في معاشرة غيرهم؟.

وينظر الإمام إلى مخدرتيه (زوجه واخته) تتعاوران اخراج ما يجتمع لديهم من

(النفايات)، فتخرجه هذه مرة وهذه مـرة حيـث تقـوم كـلاب البعـث بنبشـهِ في حضورها نبشاً، وتبحث في أجزائه بحثـاً إذ تخشـى أن يكـون في أطوائـه رسـالة مدفونة، أو ان تحتوي أحناؤه وصية مخفية، وتحس الهاشمية لهذا المشهد كأنّ نصـال هؤلاء الاعلاج تقطِّع نياط قلبها، وينطلق للمرأى الأليم سهم نافذ يصمي فؤادهـا فاذا به هو أفلاذٌ تتطاير، فلا تدخل البيت حتى تهوي منهـدة أركانهـا كأنهـا قـد فرغت للتوّ من حمل الجبال، وتسقط من فـرط الاعيـاء، كأنهـا كانـت تصـّعّد في السماء.

ينظر الإمام حوله فلا يرى ناصراً ينصره، ولا ذابـّاً يدفع عنه، فمن بايعوه على النصرة أمسوا بين من سلكوا دروب الاهوال إلى حياض الردى، ومن استحكمت عليهم اطباق السجون، ومن هاجروا نادِّين عن قبضة المنون، ومن فـرّوا خـائفين يترقبون في أرض المحنة، وبين من سكتوا مكعومين لقلة البأس وفقد الناصر.

ويسمع الإمام ويتسمع فماذا يصل إليه؟

إنّـه يسمع صراخ القلوب التي أرمضها ما ألمَّ بمعشـوقها مـن الجـور وإن كـان قدْرَه وقَدَرَه، وأجّج انحاءها سعيراً ما يكابده من العناء وإن كان شـأنه ومحبوبـه، ويسمع صدى صيحات قليلة عدد من بقي من الاباة الثائرين قد كسـرت أطبـاق الصمت الرهيب من هنا وهناك، متظلِّمة له، ناقمة على من ظلمـوه، آمـرةً برفـع الحيف عنه، ويسمعها بعد حين قد تحولت أنيناً تحت سياط العتاة، فـدعاءً خاشـعاً عند أعتاب الشهادة.

إنّـه يسمع لهذا الافواج الهائلة تساق سوقاً إلى السجون حيث أفانين العـذاب

مما لم تره العيون، قلّبَ لهم الجلاّدون وجوه العناء، وأوردوهم دَركاتِ البلاء، إستخراجاً لأسرارهم ومضمراتهم، ونكالاً لهم، وفتّاً في أعضاد من سينجُون منهم ومن خلفهم.

وتستبين الساحة للإمام بباصرة قلبه فاجعة بلا مثيل، قد عجّت باهوالها، ورزحت بأثقالها، ذئاب تنهش، وعقارب تلسع، وجسوم تمزّق، وأوصال تقطّع، واعراض تهتك، وكرامات تنتهك.

إطباق من العذاب قد جثمت على صدور الشباب، وعرامات من البلاء قد أحاطت كالنار المسعَّرة بالرجال والنساء، لهم فيها من فنون المحن ما يعز على غوص الفِطن، قد اكتنفتهم غواشيها من فوقهم ومن تحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، مأساة استعصت على نيل البال، فظلت رهن الخيال، قد لا يتيقنها من يسمع عنها لغريبات شؤونها، وفظيعات احوالها، نُزّالها أموات أو كالاموات، وسكّانها مرمى الردى واغراض المنايا، تتقاذفهم أمواجها، وتتعاورهم آفاتها، فهم أتفهُ شيء وأقله بعين الطغاة، وأبغض شيء لهم في هذه الحياة.

يرى الإمام ذلك بعين بصيرته فيخشع قلبه لجلال ما يرى من شموخ الايمان في غمرات النائبات، وتذرف عيناه جمراً حَزَناً على رهائن البلوى وأسرى الفاجعات، ويميد ثم يحترق لزلزال الحسرة ولظاها، وتصطفق جوانحه ثم تذوب لغلواء العبرة وشباها.

ثم ينظر في يده الجذّاء فاذا هي من البأس أو العون خلاء، فيأتلف عليه موج الغموم، وتطبق عليه كثافات التبريح، ولولا ذلك العروج الملائكي بروحه إلى

سبحات الجلال عند ربِّه، ولولا اليقين المتين من بارئه، والبينة الواضحة من أمره، والبصيرة النيرة في شأنه - لقضى قتيل الهموم، صريع الاسى، ضحية الاحزان والأشجان.

ويطلع هنا وجه حقيقة خلقية عظيمة عند الامام قد أَلِفها وأَلِفته، وصاحبها وصاحبته، وكانت من كبير فضائله، وعظيم شمائله، تلك سجية الايثار الذي بلغ أقصاه وأعلاه، الايثار الذي كان يعني قبل اليوم أن يؤثر غيره على نفسه براحته وماله وبما يحب.

وصار اليوم إيثاراً يعني التضحية بالنفس فداءً للآخرين. فلقد تفتق المكر البعثي عن حيلة رفع الحصار عن الامام إلى أجل مسمىً كي يتعرفوا على زائريه وقاصديه، يحصونهم، ويهتدون إلى بيوتهم، أو أماكن عملهم، ثم يسوقونهم من هناك إلى المقاصل والسجون، فقد حسبوا أنّ كثيراً من جند الإيمان الذين لاذوا بالمدّخلات والمغارات ومن لم يلوذوا سيرون في رفع الطوق عن إمامهم اعراضاً من السلطة عن ايذائه، وابتعاداً بسوئها عن ساحته، وهذا قد يغريهم بخلع لباس المحاذرة، وارتداء ثوب المجاهرة، وأول فعلهم حينئذٍ زيارة إمامهم بعد أيام يحسبونها سنين من الفراق.

ويعرف الإمام هذه المكيدة، فلم تمض أيام على فتح بابه للوافدين، وبعد علمه ببعض حالات الملاحقة والاعتقال لمن زاروه - حتى اغلق بابه بيده متحدياً أمر الطاغوت بفتحه، وأصر الظَّلَمة على أن يفتح فأصرّ هو على اغلاقه، وأبى ان يستقبل أحداً من الناس، حفاظاً منه على أرواحهم، وحقناً لدمائهم، ليبقى هو

رهن سجنه الاليم يكثّف عليه اطباق الهموم، قد تحدى امر الجبابرة، وقطع علـيهم سبيل المكر، وحال بينهم وبين ما يشتهون، ومنعهم من أن يصـطادوا بـه اوليـاءه، وأن يجعلوا راحته صيدهم، وفي ذلك تسعير لغيظهم وحنقهم، وتأكيد لحكم المـوت الذي رأى أنـّهم قد حكموا عليه به إلاّ أن يكون عند مواضع رغباتهم.

وكانت تلك من مكرماته التي لا تنسى مدى الدهر، ومحاسنه التي تبقى زاهيـة تاجاً على رأس الفخر.

الشهادة

لقد كان للإمام في المحنة الحازبة للحصار وصال حبيب بمعشوقه استغرق وقته، وصَعْدٌ طهور إلى ربّه قد اخذ عليه ساعات ليله ونهاره، يحس كأنّ هاتفاً يهتف فيه (قد قرب اللقاء الدائم الذي لا ينقطع، وآن لك الإياب المنشود الذي ترجوه، وازلفت لك الراحة الابدية التي لا نَصَب بعدها ولا وَصَب، فما هي إلاّ كفُواقِ ناقة من عمرك القدسيٍّ فيه شيء من العذاب وكثيرٍ من الثواب حتى تعود الروح الزكية إلى مستقرها، وترجع النفس المطمئنة إلى ربِّها راضية مرضية).

ويراها رضوان الله عليه رؤيا كفلق الصبح، صادقة كأنها فعل الحقيقة المشهودة، بشير خير يرتقبه لهفاً إليه، وآية محبوب ينتظره قد هام شغفاً به، إنّه يرى نفسه في مجلسٍ كريم يضمّه بخاله المرتضى واخيه اسماعيل، قد اجلساه بينهما مشوقَينِ إليه، حفيَّينِ به، محبورَينِ للقائه.

ويفسرها هو في اليقظة أنّها أذان له بأزوف الرحيل إلى البقاء، ووعدٌ له باقتراب اللحوق بالملأ الاعلى. ولم يك بين الوعد والموعود وقت مديد، وتمضي

الساعات والأيام متلاحقة عجلى سريعة الخطا، لتقف بعمر الإمام عند النهاية إلاّ صبابة يسيرة في كأس حياته الشريفة هي أقل ما في عمره بحساب الزمن، واعظمها بحساب الشأن، قد أدّخرت له السماء فيها على قصرها الأمر الجسيم الذي ما غاب عن باله، ولا كفّ عن طلبه من الله بالدعاء، ومن واقعه بالمجاهدة الدائبة، الا هو (الشهادة)، غاية البرِّ ومنتهاه، واقصى الخير وابعد ما في مداه، ذروة الإيمان والتقوى، وشاهد الحب والوفاء.

وإن هي إلاّ ليلة وجَدَ الامام نفسه قد تخفف حتى شف، وصفا حتى سما، تجرّد عن الدنيا واثقالها تجرّداً لم ينقصه إلاّ هذا الوزر الترابيُّ المسمى (البدن) يحبس روحه عن عروجها الحقيقي، فصار يستثقله وينوء بحمله، ويتطلع مشتاقاً إلى الساعة التي يكسر فيها هذا الطوق الخانق، ولو كان في ذلك فظاعات الآلام الدنيوية، ومضاعفات الاوصاب والعذاب، تنال من ذلك الطوق ولا تنال مما طوَّق، وتفعل فعلها في الحبس لا في الحبيس، وتصيب حظّها من جسد مهدود مكدود، ولا تصيب شيئاً من روح ضمَّها ذلك الجسد ضمّ زجاجة المصباح النور، تشع به ولا تعنيه، وتعكسه ولا تربطها بحقيقته وشيجة.

ويظل الامام ساهراً لا يغمض جفناه، ولا يدنو من عينيه طائر الكرى، قد أسهره فرط السرور الذي يراه يتدفّق عليه أمواجاً خضراً من النور، فيها جمال وفيها جلال.

وأذهب النومَ عنه ما يحسه من دنوِّه قاب قوسين أو أدنى من الحياة الأخرى، حياة اليقظة الابدية المأنوسة، فلا عجب ان يتخفف من معالم الطين الواهنة،

يستبدل بها معالم الخلود السامية. وتسمع واعيتاه طرق الباب بعد ظهر يوم السبت ١٩ جمادي الاولى ١٤٠٠ هـ فلا يشك في أنّها تباشير الخلاص بدأت تترى، ويسمع الباب يفتح ليدخل عليه بعض أعلاج الشيطان يدعونه لمرافقتهم معتقلاً بعد أن رفض دعوتهم له أن يمضي معهم زائراً على شأن إبائه وشموخه وكفره بطاغوتهم، ودعوته إلى الكفر به والثورة عليه، وكأني بالامام ينطلق مودِّعاً اهله الكرام بادئاً بامه منتهياً بصغاره، وهو أمرٌ وإن كانوا ألِفوه من قبل إلاّ أنّهم يحسون له اليوم حرارة لم يجدوها فيما سبق، ويلفون فيه جداً وحزماً لم يعرفوهما فيما سلف.

وكان ذلك أدعى إلى مضاعفة الشجى، واستعار الاذى، ولولا أن يقطع الامام حديث الوداع بالانصراف فقد خاف غائلة الظن من الجناة أنّه قد هابهم، وضعف بصارف الخوف عن المجيء اليهم، - لكان لموقف الوداع أثر غير الذي كان من ذوب القلوب بحر ناره، وانقطاع الانفاس في غمرة تياره.

ويقبل الامام كالضرغام على طالبيه، ويبسم لهم مسلماً عليهم، منطلقاً أمامهم ينقل خطاه إلى حيث يريدون.

وتنطلق الجماعة الغاوية برهينتها على عجل ووجل مسرعة إلى بغداد، وتبلغ عصبة الضلال غاية مسيرها، وتمضي بالامام إلى المكان الذي أريد له ان ينزل فيه ليفتح له عبيد الشيطان باباً الى ما أمَّلوا فيه كل آمالهم، وتوسّموا فيه غاية محبوبهم.

إنّه (المساومة).

ويجيء النهار فيدخل عليه نفرٌ هم مبعوث رأس الضلال اليه، وقد نمَّقوا موقفهم بين يديه بظاهر التوقير والتواضع، وغطَّوْا على جفاوة السنتهم السليطة بخديعة الكلام المهذب، وكأنّي بمتحدثهم يتحدث بكلام كثير يعيد فيه ما طرحه النظام من قبل على سمع الامام فرفضه رفض الباسل الهمام.

(لعلك تعلم أنّ مبادئ حزبنا منبثقة عن روح الاسلام، وأنّ شعاراتنا التي نطرحها هي شعارات ذلك الدين السمح لكن بلغة العصر، وان الذي نريد تطبيقه على واقع الحياة في العراق وفي الاقل في وقتنا هذا هو احكام الشريعة الغرّاء لكن بلونٍ متطور رائد يلائم هذه الحياة الصاعدة.

وإنّنا نحب علماء الإسلام وندعمهم ما داموا لا يتدخلون فيما لا يعنيهم من شؤون السياسة والدولة.

فلا ندري بعد ذلك لماذا حرَّمتم حزبنا على الناس؟ ولماذا دعوتم إلى القيام علينا؟ ولماذا أيدتم أعداءنا في إيران؟ ولقد أنذرناكم، ونصحنا لكم، وأعذرنا إليكم في هذه الامور جميعها، غير انكم أبيتم، وأصررتم، ورفضتم الاّ طريق العناد، ممّا جعل (قيادة الثورة) تشعر بأنّكم خصمها العنيد وعدوها اللدود، وأنتم تعرفون موقفها ممن يناصبها العداء، وما حكمه في قانونها، وقد اقترحت أن تعرض عليكم أموراً اذا أنتم نزلتم على رأيها فيها أَمِنتم حكم القانون، وكان لكم ما تحبون من المكانة العالية، والجاه الكبير، والمنزلة الرفيعة لدى الدولة ومسؤوليها، تُقضى بها كل حاجاتكم، وتُلبّى كل رغباتكم.

وان أبيتم كان ما قد تعلمونه من حكمها نافذاً فيكم، سارياً عليكم مهما كانت

الاحوال.

وامورنا التي نطرحها عليكم لا يكلفكم تنفيذها شيئاً، لتعودوا بعد ذلك مكرمين معزَّزين من حيث أتيتم، لتروا بعدها من فنون التعظيم وألوان التكريم ما لم تره عيونكم، وما لا يخطر على بالكم.

أول تلك الامور: هو أن تعلنوا تأييدكم ورضاكم عن الحزب القائد وثورته.

وثانيها: أن تُعلنوا تنازلكم عن التدخل في الشؤون السياسية، وتعترفوا بأن الإسلام لا ربط له بشؤون الدولة، وتحرّموا العمل التنظيمي الإسلامي.

وثالثها: أن تعلنوا تنازلكم عن تأييد الحكومة القائمة في إيران، وتظهروا تأييدكم لموقف العراق منها.

وهذه الامور كما ترون يسيرة التنفيذ، كبيرة الأثر، جمة النفع لكم قبلنا، فلا تضيّعوا الفرصة التي بذلتها رحمة الثورة لكم، واذا رفضتم ذلك فأقل شيء يرضي ثورتنا عنكم هو مقابلة صحفية معكم تنشر في صحفنا).

كان هذا العلج اللئيم يتكلم، والامام يُظهر الإِصغاء ويبتسم، قد أحسّ والقوم قد رفعوا في وجهه حراب الوعيد أنّ عزمة الاباء تتعاظم في انحائه، فهو ذلك الابي الرافض لم يتغير ولم يتحول، وأنّ روح الشمم تفيض في عروقه أشد انطلاقاً واندفاعاً فهو ذلك الصلب الشامخ العنيد لم يضعف ولم يتزلزل، والفى في نفسه والقوم قد منّوه ووعدوه أنّ عزوفه عن الدنيا وزهده فيها صاراً أضعافاً مضاعفة، وقد استباحا تلك البقية الضئيلة من مكان الدنيا المحللة التي كان يتقرب بها إلى ربّه، وأتيا على شؤونها اليسيرة التي هي قدر حظه المفروض منها صيّره عبادة وزلفى، وها هو يحس كأنّ جده الحسين تمثل له الآن شخصاً حسيّاً يشير له بيدٍ

مبتورة الإصبع إلى كربلاء في يومها الدامي، إلى ساحة قد غمرتها الدماء، وانتشرت فيها جثث الازكياء، ويسمع ذلك الشخص الحسيّ يقول له: (هذه كربلاؤنا وقد صدقنا فيها ربنا معرضين عن الدنيا اذ عرضت علينا واسعة بكل زخارفها على أن ننزل على حكم الطغاة، ونذل لاهواء الجناة، فأبى الله لنا ذلك بإبائنا، وحبانا بالشهادة تكرمة منه لنا، فما انتم صانعون في مكرور يومنا ذاك، ومجدد كربلائنا تلك، بفصول متشابهة، وامور متقاربة؟، لا ريب أنّكم على العهد، وأنتم به وافون.

على طريق الفداء، وأنت اهله.

على موعد من الشهادة وهي ميراثكم).

ويرفع الامام رأسه بعد صمت وسكون. أمل الأشقياء فيهما نيل ما يُحبون، ليقولها صواعق تتنزل من السماء، وبراكين تتفجر من الأرض، وبلايا جساماً تقبل من كل صوب، يطلع منها عليهم تيار الحيرة زخّاراً صخّاباً، ويغرقون في متلاطم موجه بحراً عباباً، قد دهمهم شموخها بالامر العجاب، واخذ بمجامع القلوب والالباب، ليخرجوا بعدها من فرط صدقها وجلالها مقهورين، ولسلطان عزتها وتعاليها مأسورين.

كأنّي به قد قال لهم: (قد كنت أحسب أنكم تعقلون القول أو تتعقلون، فيفلّ حدّ عرامتكم إلزام الحجة، ويقهر غلواءكم وضوح البرهان، فقد وعظتكم بالمواعظ الشافية أرجو صلاحكم، وكاشفتكم من صادق النصح ما فيه فلاحكم، وأبنتُ لكم من مَثُلاتِ الله ما هو حسبكم زاجراً لكم لو كنتم تخافون المعاد، ونثرت لكم من مكنون علمي ما يبلُّ غلّتكم لو كنتم إلى الحقيقة ظماء، ويشفي

واعجب ما في امركم مجيئكم اليّ بحلية الناصحين، تنمّقون القول، وتزوّرون اللسان، تعدونني خير العاجلة برضاكم، وثواب الدنيا بهواكم، تريدون مني أن أبيع الحق بالباطل، وأن أشري طاعة الله بطاعتكم، وأن أسخطه لأُرضيكم، وأخسر الحياة الباقية لأربح الحطام الزائل.

ضللت اذن وما أنا من المهتدين، تباً لكم ولما تريدون، أظننتم أنّ الإسلام عندي شيء من المتاع يشترى ويباع؟، أو أنّه شيء من عرض الدنيا يؤخذ ويعطى؟، تعرضون لي فيه باهظ الثمن عندكم جاهلين، وتمنونني عليه زخارف خادعة من الطين؟ أتعدونني عليه وتوعدون؟ وترغّبونني فيه وتنذرون؟

فأوبوا بخيبتكم محسورين، وارجعوا على الاعقاب مدحورين، فو الله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم اقرار العبيد.

فان كان عندكم غير الموت مما تخيفون فهلمّوا به، أو كان لديكم سوى القتل مما تنذرون به فكيدوني ولا تنظرون، لتبصروا أن لي بالجبال الشُمّ شبيهاً من التعالي والشمم، وأنّ عندي من الرواسي الشامخات مثيلاً من الرسوخ والثبات.

قولوا لمن بعثكم ومن وراءهم من أسيادهم أنّ دون ما تريدون من الصدر ألف قتلة بالسيف أو خطباً أَمَرّ، وان الذي تطلبونه منه لونٌ من المحال لا تبلغونه على أيّة حال.

ووالله لن تلبثوا بعد قتلي إلاّ أذلة خائفين، تهول أهوالكم، وتتقلب أحوالكم.

يُسلط الله عليكم بايديكم من يجرُعكم مرارة الذُّلِّ والهوان، ويسقيكم صاب الهزيمة والخسران، يذيقكم ما لم تحتسبوا من طعم العناء، ويريكم ما لم تتوجّسوا من البلاء، فلا يزال بكم على هذه الحال، حتى يؤول بكم شر مآل، جموعاً مثبورة

سقمكم لو كنتم تعلمون انكم مرضى ضلال، ويحييكم بعد موتكم لو كنتم تشعرون أنكم صرعى غواية، حتى حصحص أمركم، وصرّح مكنونكم أنّكم اضل سبيلاً من الانعام السائمة، واقسى قلوباً من الحجارة الخاوية، وأشرهُ إلى الظلم والعدوان من كواسر السِباع، لا تزدادون مع المواعظ إلاّ غيّا، ومع الزواجر إلاّ بغياً، اشباه اليهود، واتباع الشيطان، واعداء الرحمن، قد نصبتم لدينه الحرب الضروس، وشننتم على حرماته الغارة الرعناء، وتربصتم باوليائه كلّ دائرة، وبسطتم اليهم ايديكم بكل مساءة، وقعدتم لهم كل مرصد، واخذتموهم على الشبهات، وقتلتموهم على الظنّة، على سنن آبائكم الأولين، تقتفون آثارهم، وتنهجون سبيلهم، لا يردعكم عن كبائر الاثم رادع، ولا يزعكم عن عظائم الجرم وازع، قد ركبتم ظهور الاهواء فتقحّمت بكم في المهالك، وأتبعتم داعي الشهوات فأوردكم أسوأ المسالك. قد نصبتم حبائل المكر، وأقمتم كمائن الغدر. لكم في كل أرض صريع، ولكم في كل دار فجيع، تخضمون مال الله فكهين، وتكرعون في دماء الابرياء شرهين، فانتم والله كالخشب اليابس أعيي على التقويم، وكالصخر الجامس أنأى الأشياء عن التفهيم، فمالي بعد ذلك لا أنفض يدي يأساً منكم؟ يا شذاذ الآفاق، وأوباش الخلق، وشرّ البرية، وعَبَدة الطاغوت، وأحفاد الفراعنة، وأذناب المستعبدين، أظننتم أنكم بالموت تخيفونني؟ وبذكر القتل تلوونني؟ وليس الموت إلاّ سنّة الله في خلقه كلهم على حياضه واردون، وليس القتل على أيدي الظالمين إلاّ كرامة الله لعباده المخلصين.

فأجمعوا امركم، وكيدوا كيدكم، واسعوْا سعيكم، فأمركم إلى تباب، وموعدكم سوء العذاب، لا تنالون من أمرنا، ولا تطفئون نورنا.

واعجب ما في امركم مجيئكم اليّ بحلية الناصحين، تنمّقون القول، وتزوِّرون اللسان، تعدونني خير العاجلة برضاكم، وثواب الدنيا بهواكم، تريدون مني أن أبيع الحق بالباطل، وأن أشري طاعة الله بطاعتكم، وأن أسخطه لأُرضيكم، وأخسر الحياة الباقية لأربح الحطام الزائل.

ضللت اذن وما أنا من المهتدين، تباً لكم ولما تريدون، أظننتم أنّ الإسلام عندي شيء من المتاع يشترى ويباع؟، أو أنّه شيء من عرض الدنيا يؤخذ ويعطى؟، تعرضون لي فيه باهظ الثمن عندكم جاهلين، وتمنونني عليه زخارف خادعة من الطين؟ أتعدونني عليه وتوعدون؟ وترغّبونني فيه وتنذرون؟

فأوبوا بخيبتكم محسورين، وارجعوا على الاعقاب مدحورين، فو الله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم اقرار العبيد.

فان كان عندكم غير الموت مما تخيفون فهلمّوا به، أو كان لديكم سوى القتل مما تنذرون به فكيدوني ولا تنظرون، لتبصروا أن لي بالجبال الشُمِّ شبيهاً من التعالي والشمم، وأنّ عندي من الرواسي الشامخات مثيلاً من الرسوخ والثبات.

قولوا لمن بعثكم ومن وراءهم من أسيادهم أنّ دون ما تريدون من الصدر ألف قتلة بالسيف أو خطباً أَمَرّ، وان الذي تطلبونه منه لونٌ من المحال لا تبلغونه على أيّة حال.

ووالله لن تلبثوا بعد قتلي إلاّ أذلة خائفين، تهول أهوالكم، وتتقلب أحوالكم.

يُسلط الله عليكم بايديكم من يجرُعكم مرارة الذُّلِّ والهوان، ويسقيكم صاب الهزيمة والخسران، يذيقكم ما لم تحتسبوا من طعم العناء، ويريكم ما لم تتوجّسوا من البلاء، فلا يزال بكم على هذه الحال، حتى يؤول بكم شر مآل، جموعاً مثبورة

في الروابي والفلوات، وفلولاً مدحورة تطلب السلامة والنجاة، حتى اذا انفضّ عديدُكم، وفُلّ حديدُكم، دمدم عليكم، فدمر عروشكم، وتركّكم أيادي سبأ، أشتاتاً بين من أكلتهم بواتره، ومن هاموا على وجوههم في الاقطار، وولّوا مذعورين إلى شتى الأمصار، ويورث الله المستضعفين ارضكم ودياركم واموالكم، فاذا بكم قد أمسيتم لعنة تتجدد على أفواه الناس، وصفحة سوداء في أحشاء التاريخ).

وينكفئ اعوان الشيطان اذلة خاسئين، حيارى منهكين، قد أذهلتهم صرامة الامام، وملكت عليهم أقطار دنياهم حيث يديرون الطرف حيرة طاغية، وعجب قاهر، وذهول آسر.

وينقل حديث الامام إلى سمع صدام لتضطرم أحشاؤه منه بنارٍ لا يعرف كيف يطفئها، ولتميد أركانه بزلزال لا يدري كيف يقفه، ولتتكاثف عليه الحمم من بركان لا يرى سبيلاً إلى اسكاته، حتى هذا الذي أضمرهُ له، وساومه به، وخطر في نفسه الساعة ان يُعجّل به له وهو القتل، لم يغير من حال رعبه وهلعه شيئاً، فليس هذا بسبيل نجاة منهما، انما هو حيلة العاجزين، وغاية كيد المغلوبين.

ويُفتح الباب صبيحة يوم جديد ليدخل على الامام رهطٌ من الجلادين تتقدمهم امرأة لها بمن أدخلوها عليه شبه في الخلقة والجسم، ولها منه نظير في الصلابة والعزم، وينظر الامام فاذا بها (بنت الهدى) فتأخذه رعدةٌ سرعان ما سكنت، وتشب في أحشائه نار عجلان ما خمدت، ويكتفي في هذا المشهد بنظرتين ثاقبتين يلقيهما على اخته، فيهما صرامة واقتدار، وفيهما حديث ووصية، ثم يطرق إلى الارض لا يرفع ناظريه، وأزبد الجلادون وأرعدوا، وهدّدوا وأوعدوا، وأنذروا

بفظيعات الشرور، وجسيمات الأمور.

وكأنّ في اذن الامام وقْراً عن سماع الوعيد، ودون قلبه وما ينذرون حجاباً مستوراً من حديد.

وانصرفوا عنه باخته بعد حين، وقد جاؤوا بها اليه مساومين، وانقلبوا غير مفلحين، اسارى البُرَحَاء، ورهائن الغمَّاء، ويمضون إلى اوليائهم يقصّون عليهم قصّة الرفض يسمونها (العناد)، وآية الإِباء يسمونها (الإصرار على الجرم).

فما هي الا بضع ساعات حتىٰ جاءهم الأمر المبيّت الذي أرادوا بمساومة الامام بشتىْ فنونها ان يظفروا بخير منه ما عسى أن يكون علاجاً لدائهم، وأيسر منه ما عسى أن يكون سبيلاً إلى غايتهم.

وها هو اليوم المنشود أسْيف حزيناً، أسيان مفجوعاً.

قد علا وجهه شُحُوبُ وأسىً.

وملأ عينيه وفاض دمع الشجى.

فهذا امام الخير والتقى.

قد قضى صبراً بين ايدي الطّغام.

وفاضت روحه على مرأى اللّئام.

بعيداً عن أيدي الأحبَّاء.

وفي منأى عن عيون الأولياء.

ليُلفَّ في اكفان الآثمين.

ثم يمضي إلى قبره في سكون مبين.

في ليل أيهمَ صامتٍ ساتر.

تحمل نعشَه كفُ العدو الفاجر.

وحيداً غريباً كأنه بلا حبيب.

وله عشق النفوس والضمائر والقلوب.

فليت شعري.

من كان يرجو أن يرى قبل موته من أحبابه؟

ومن واساه منهم في صروف موته وأوصابه؟

وهل دمعت عيناه في لحظات الفراق الجسيم؟

تطرفان يميناً وشمالاً فلا ذو رحم ولا ولي ولا حميم.

وهل دعا بماء يطفئ غلةً كالنار في احشائه؟

فلم تسعفه وحدة نكراء فاقت كرب بأسائه.

ينادي بصوت خفيض صَباه وأسماءه.

ويدعو اليه لهيفاً جعفره وحوراءه.

همّه قبل الفراق أن يراهم.

ويملأ قلبه المكدود من طيب مرآهم.

لكنما أعياه ما يرجو فأذعن لليأس والشجون.

وأغمض ناظريه لأمر الموت ملتاعاً بغمِّه المكنون.

فقضى ودمعة كالجمر قد بلّلت جفنيه.

وحسرة حرّى خمدت وكانت تتلظى بين جنبيه.

كلاّ لم يذق صدرنا للموت غمّاً ولا كرباً.

ولا قاساه شراً، ولا عانى له خطباً.

بل حبيب هام عشقاً.

ومعشوقه ربّه ذو الجلال.

وصبٌّ ذاب شوقاً، وهذا الموت يؤذن بالوصال.

في المحضر الميمون للسلف العظام.

في المشهد المأنوس للملائكة الكرام.

لهم في سمع روحه نداء ناعم ودود.

بُشراك بُشراك هذا يوم الخلود.

هؤلاء هن الحور، وهذا هو النعيم المقيم.

في رحاب الحبيب وفي ظل الكريم.

(الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون).

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم).

(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أوّابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد).

وهكذا غاب عن الحياة وجه الصدر كما تغيب الشمس فاذا غِربيب الظلمة يطوي الأرض فهي معتكرة مدلهمة، وكما تغيب النضرة عنها فاذا هي قفار موحشة، فلا تلك النفس الضاحكة تغمر انحاءها بالبِشْر والحبور، ولا ذلك القلب النديّ العابق الرفّاف يملأ اجواءها بالطيب والشذى، ولا ذلك الصوت الملائكي

يشنفها بترانيم العشق الأقدس.

لقد ذهبت النفس إلى بارئها ليجد أهل الآخرة حظهم من جمال اللقاء وبهجة الوصال.

وانقلب القلب الرفيع على جناح المنيّة إلى عالم الغيب لتتندى به صفحاته.

وبقي ذلك الصوت العظيم وعياً في الافهام، وتدبراً في القلوب، وعزماً في النفوس.

كفكفي يا أرض دمعك، وامسحي ماء شؤونك، فليس للصدر ألاّ يبين، فكلّ نفس ذائقة الموت.

ورحمة لها اللهّم، إنّها الأم الحانية التي أثكلت بمن أحبت على علم، بعد أن كرهت على جهل، فودت أن لو تمادى بها وبه الزّمان لتريه كيف يكون الندم على ما تقدّم، وكيف تجزيه بالاحسان على ما كان منه من الاحسان.

ويصاب الرجل وظهيراه بالذهول حين يجدون أنفسهم أمام جسد عصمته يد الباري بمعقبات اللطف من الفساد. وكان على الثلاثة أصحاب الجهد الخطير المبرور أن يقوموا بعبء الرحلة الثالثة، فالجسد السليم فوق أن يقوم بحمله رجل واحد.

يقول الدفان الخبير مبهوراً إن رفات الدفين يُرفع بعد سنتين باصبعين، فمن هو غير الغيب العاصم صان هذا البدن بالكلاءة ليقتحم الأعوام الطويلة، ويخرج معافى من شرور كرورها، كأنّما كان يتقلّب وادعاً بين احضانها وصدورها؟!

ويمد احدهم يده عبر الكفن يتحسس الكُلوم والكبول التي ظن أنّها لا زالت تطوق المعصمين الشريفين، وتقع يد الرجل على خاتم الإمام فينتزعه وهو يرى فيه شاهده بالحق عندما يتحدث للتاريخ والحقيقة يوماً ما عن كرامة الجسد المثاور المصون، والقبر المصمم كصاحبه على المقاومة، ويجمع الرجل القطن المدمى الذي وضعه الجلادون على الجراح النازفة بعد فصول العذاب التي كابدها الإمام منهم وكانت فيها نفسه، فأمّا الخاتم فقد وصل بعد أيام إلى أهل بيت الفقيد السعيد ليحُبروا باللطف الإلهي، وتطمئن قلوبهم لسلامة الجثمان الطاهر من التضييع، وأمّا القطن فقد عرف سبيله إلى حرز التكتم وقت المحنة، ثم إلى متحف الآثار الكريمة لرائد القضية بعد التغيير، ويعود القبر بعد غربة التعتيم مزاراً ومثابة ومهوى للأرواح، يؤمّه المتيمون بفاتنة الطهر والصدق والفداء، في ذروة الحسن والبهاء. يؤدون فرض العشق المطلوب في معبد الأجلال لآسر القلوب.

***

الحث في المأثور على زيارة القبور حكمة متعالية في عالم الاعتبار، تلهم النفس التي لا بد أن ترتاض حديث الوجدان عن حقيقة الذات في روعة الاصغاء إلى

وحي الضمير المكنون الذي لا تحتاج عقيدته إلى براهين معجزة ما دام كل برهان لا يأخذ حجيته إلاّ من تصديقه. وأنت لا تجد في ما عدا حديث النفس في يقظتها وخلوتها وخلاصها من كبول الدنيا الهابطة - سلطة الالزام والافحام، وقدرة التأثير والتغيير التي قد تصل إلى مدى الثورة في الاعماق، تقلع الاوتاد ، وتفك الاغلال، وتصنع المعجزات التي يعنو لها انتفاش الوهم الخادع.

حين تعتكف الروح آناً من دهرها في معبد العبرة عند القبر تسمع كلاماً قدسياً آتياً إليها من الأفق الملائكي البعيد بُعْدَها في الغفلة عن السداد ودلالة المرتاد، القريب الحاضر المعصوب بالاعماق، يذيب في امتداد صحوتها فسحة الآفاق، وتَنشدُّ الروح إلى لسان القبر مشغوفة بحديث كانٍ في وسعها أن تسمعه سحابة العمر لولا ما تلغو في اذنيها دونه من زبارج الحياة في أعراسها المأنوسة، وتعدو عليه للطمس من تَصْدِية الشهوات في محافلها المألوسة.

في خلوة الخلاص من أنكال السفساف، ورهج النزوات والنزغات، في يقظة الانصات إلى قصة الموت عند حطام الرغبة والخداع، وأطلال الزيف والغرور، وهزيمة الاحلام الوردية، وافول الطموحات العريضة، وغروبها مكرهة في مذبحة الذات في أضيق المديات (قَيْد القَدّ)، لدى أطول الآماد (سامرة الدهور إلى يوم النشور) يكون لهذا الإنسان الطامح الولهان، الطافح بالتسويف والنسيان، بأسناد النهم المفتون، الممتطي في رحلة الاهواء كل صعب وحَرُون - وقفة امام الحقيقة حيث هي اقدر لسان على النطق، وأوفر سلطان على الاستحواذ، وأبلغ واعظ عرفته مضامير الوعْظ الغلاّب.

وقفتُ على قبره الشريف للاستلهام من معجزة اليقين والصدق والاصطبار (ذلك الدين الخالص)، ولم يكن مطمحي لمس الضريح، وتحريك الشفتين بكلمات الفاتحة، فليس ضريحه إلاّ كناية عاجزة شوهاء، واستعارة خاوية بلهاء - عن

حقيقة المجد الشامخ المنداح في فضاء العظمة، يأخذ على العارفين البلغاء اقطار الفكر والبيان، فيستسلمون للاعجاب والذهول، وماذا يزيد جَداءُ ألفاظ يرددها مثلي في نُعمى من كان تجسيدَها في منتهى القداسة وجلالها، فحباه الله بكرامة الرضوان في علّيين، ومقعد الصدق المكين؟

إنّها الجبلّة الإنسانية أن يوجّه البشر المنبثق من الطين بدواعي نصفه الحسّي، وأَثَر التآصر بين المادة والروح، ووشيجة المحسوس بالمعقول – وجهه أحياناً صوب مَعْلَمٍ ماثل رامز مشروع، يخاطب عبره أو يجاهه حتى أقدس المقدسات، وأرفعها في التجرد والنزاهة عن الواث الحدود والقيود والقيم الترابية، فبسلطان المعبر الشاخص ودلالته على رمزه يرق هذا الجسم الإنساني بما هو من مادته، و بِمحَدّه يُشحَذُ المبضع الذي تمشي به يد الاصلاح والعِبْرة في الجسد الخنّاس الجاثم فوق النفس بأثقاله الباهظة، ليكون له ما يكون لها من الانكسار والخضوع والرغبة حافزاً لازماً للانطلاق.

وكان لي من مقدار قبرٍ شريف من الأرض وثبة امتداد بالشوق المارد والعشق العملاق، فانطلاقة جذب قاهر في حبالة المشاعر الغلابة في منتهى هياج الخيال، ثم صَعْد فصَعْد في رحاب المعاني السامية التي استهام بها شوقي، وتسمّر فيها عشقي.

وقفت على القبر، ووجدت قلبي ذلك الأبي الرافض أن يذل للتسليم بالفراق الذميم، ولم تُجْدِه كل هذه الشواهد النابضة (الضريح، وما عليه من إسم وصورة، وكلام الدفّان، وهؤلاء الناس الزائرين المصدقين بالرحيل) في أن يستعيد عافية الصحو والانعتاق من سكره التليد الذي غشّى عينه ما غشّى من الرضى، فلا تبصر عيب الردى في محبوبها ومطلوبها ما دامت هي بالرضى المطلق الفتّان محجوبة عن أن ترى السوء في معشوقها.

وقفت على القبر فاذا بها وقفة برزخية قصيرة في مدى الناموس الحاكم

للزمان، لكنها طويلة حافلة تحررت من اغلال الوقت والمكان، ناديت فيها ذلك العلاء الاخّاذ نجاء شاعرياً تحدث فيه القلب المعمود على زجل الاحاسيس الوهلى في حشود الآهات والحسرات المستعصمة بميثاق الحلف الاقدس بينها وبين فاجعة الدهر، والمصممة على صدق العهد أن تكون دائبة الحضور في منتهى الحرص على سجية الانفعال...

وفاه القبر في ضراعتي للاعظام والاستلهام، ونطق في اذن المشاعر المصغية بفرط الاقبال والاهتمام، وجاءت كلماته سحراً قهّاراً لا يقدر معه القلب على شيء إلاّ وثاق التسليم لسطوة القول الكريم:

يا زائري جدثاً محدوداً وقد ظنّ أنّه يختصر بعرامة الاحساس الوثّاب أفضية المعاني الشداد التي طواها الرمز بيمينه، فيجعلها لحظات شعورية في مدى وجدان.

أوظن أنّه يجمع في وقفة الاستشفاف حجم القيم الكبرى الذي بات قبضةَ هذا الرمز فيصيّره أشباراً ترابية يحيط بها ناظرٌ وسْنان.

لو علمت حقيقة ماهنا، أدركت أنّك أبعد شيء عن هذه المنُى.

هاهنا حقيقة متصدّرة كان يضمها في دنياكم وجود الصدر كما تضم احشاء الكلمة البليغة أعمق المرامي حيث لا يدرك غورَها إلاّ من أئتمنتهم سرها.

هاهنا عصارة التاريخ الفذ الرشيد، اختصره الصدر العظيم في اقتدار ما ناهز الخمسين من السنين، يلتمع في آفاقها صدق الإيمان، وشموخ العطاء، واعجاز الفداء.

هاهنا محفل العرفان العملي الفرد، احتشدت فيه ملائك الوجد والجهد، يستعيد نسخة العرفان الاولى لاقطاب العارفين في صبابة الجِنان، ودأب الاركان.

هاهنا الظلامة التي بذّت الظلامات المعاصرة فهي الفائتة في مضمارها، تزدهي بوسام السُبقة المثلى، ولوازمها من عطايا الذوب المنشود في ربّ الوجود.

هاهنا الدمعة الحانية السجوم التي فاضت خشوعاً في المحراب، أو رحمة بالمحروبين.

هاهنا امروعة الفضائل العليا تنعش من استهوتهم بهجة القلوب في سبحات المكارم،، وروضة القيم السماوية يستروح فيها الآدميون شميم الملائكية، ويتذوقون قدسها.

هاهنا الوصل الحفيد الأبهى بالحقيقة الأسمى، بل شرحها الأوفى لصفاتها الحسنى، في كتاب مسطور، وواقع منشور، يقرأ ويعاين فيها الربّيون المتوسمون وعشّاق الربّ ملحمة الهوى القدسي في منتهى التتيّم، فتزيدهم حبسنة الطلب البديع، والفهم الرفيع حسناً في عقولهم وضمائرهم وخطاهم، تحدوهم إلى اكرومة البدار فيهطعون، وتستثيرهم في مدارج الكمال فيعرجون.

هاهنا شموخ المبدأ المعصوب بالوحي، وجلال الاعتقاد الموصول بعيبة اليقين، وبهاء الحق الضاحك في علياء النبوة، وضياء السداد المشعشع من افق الامامة، وكرامة التنزّه المصون بالاعتصام من الواث المشائن، وسلامة القلب المنذور للفضائل والمحاسن، وجمال النفس الرفيعة التي تزيّنت بوسام ما عليها من الحق المعلوم، من نشاط الهمّة واعتساف الهموم.

هاهنا نُبْل اليراع الفذ الذي ما رعف إلاّ للحق، ونبل العين التي ما سهرت إلاّ لله وعباده، ونُبْل اللسان الذي ما نطق إلاّ في فم البصيرة للرشاد، ونبل القلب الذي احتضن الاشواق والخلوص والظلامة، ونبل السلوك الذي تمحض استقامة حين نقّاه الحب الأمثل من شوب المعائب، ووقاه العلم والدور مماثلة الرعية والتابعين، وسما به مسلك حق الطاعة الشامخ إلى افق التقيد الصارم العوان، زارياً بمندوحة البراءة لقبح العقاب بلا بيان.

هاهنا الجهاد الفذ سليل ذات الشوكة الذي احتمل الدور الموروث بالنسب

والسبب، فله من محتّدهِ سيد المرسلين أثقال البلاغ الفادحة، ومن جده سيد الوصيين أعباء الصبر والمقاومة، ومن الصلب سيد الشهداء أوزار الرفض والفداء، ومن الآباء الهداة سادة الانام جهود المعرفة والوعي المنير على مسلك التغيير..

هاهنا فتنة الله في ركب البلاء الواصب يَمِيز بها ما يشاء كما يشاء، ما دام قد أبى أن يذر الناس في باحة الادعاءات بلا محك، أو أن يتركهم في صيرورة المسار إلى الكمال المرسوم بلا مخاض.

هاهنا مجمع الغصص الهيم التي تأست بسالفاتها في حرب النكوص على المقاومين الأبرار، وزفرة الحسرات الضارمة التي صيرت أيّامه العصنية الأبية بين مهادها وغواشيها، ومحفل الاوسمة لهذه الجراح النازفة على منهج الكلوم الراعفة، المفروضة بمسؤولية الاستخلاف، المطلوبة بهيام العبودية، تحفرها في الافئدة والجسوم حراب اللوعة وشفار البواتر، تتأرّجُ في قمة النفح من وريد عاشوراء، يحفزه عبير النزف من قلب علي والزهراء، على الخطى التالدة لعمالقة التضحيات، اسوة للخطى الطارفة لمتيّمي المكرمات.

هاهنا مهوى الندم من كل النادمين على التقصير، ومباءة الاسف في منتهاه، والاسى في قصاراه، من كل آسفٍ أسيان لغياب شمس للمعرفة لا شفع لها، ظنها عشاق العلم واصبة الاشراق، فلما سامها القهر سوط الافول عرفوا أن لا ملجأ من الجوع القاتل إلاّ إلى الصبر الحنظلي في نَدِيٍّ الغموم والآهات، فعاذوا بمعاذه المرير، يكابدون أهون الشرّين في رزئهم.

هاهنا (آه) الشعور الرفيع لو كانت تحسن الافصاح البديع عن نفث الحمم، آه زكية بحرٍّ كل الاسى، هي دأب من عاشوا لغيرهم في نزهة الايثار ونبذ الذات كأنّهم عمّار الملأ الاعلى.

هاهنا لوعة شريفة جَموح تجتر عمر الشجى الممتد على المدى، تسترجع

جحافل الافلاذ لتلك القلوب الرضية التي أصمتها الهموم العليّة، ورشتها في دروب السالكين منارات ومناقب واسفاراً، يقرأ فيها أحفاد المجد الوارثون قصص الفخار لآبائهم عمالقة الصبر والاحتمال.

هاهنا ولهٌ قدسي ملء عوالم الوجد التي كتب فيها الصدر ملحمة النفس الشامخة التي اختارت جمر اللوعة لأنها مطلب الافذاذ النازهين الذين يرون أنّهم لم يخلقوا إلاّ لبارئهم ورعيتهم.

هاهنا زفزة عُلْوية تحدت الوصف، وليت لها رسولاً بخارق البثّ الفريد، تأتلف بقهر إعجازه أمّة الواجدين والمفجوعين، شاهدة على أمم التفجع بشجوها الخاتم، الظاهر على الحزن الراهن كله بالتجليات الجسام، بالوعي المبصر الرشيد على خط الفقيد تُكشف به الظلمات، وبالعزم الثاقب الشديد تُدرك به الذُحول والتِرات، وبالجهاد الحافل بالعطاء، يمرع الأرض ويرضي السماء.

اصغى الفؤاد لهذا الحديث الخاشع الذي تعاضدت له في المستلهم المجذوب رغبة طاغية واعظام قاهر على جعله مصفوداً بالمشهد الاثير، وقد طافت به من أساه مشاهد فوق الاحتمال، صيرته مدنّفاً لا يعرف غير الاستسلام لسطوة التهمام التي جاست خلاله غاشمة كأنّها تطلب لديه وِتْراً عزّ عليها قبل اليوم، والفت الساعة فرصتها، فوثبت وثبتها، وإن هي إلاّ لحظات ذاهلة حتى انتفضت فيه عرامة الشوق بفرط العزم على ان يكون له في هذا النجاء الحبيب حديثٌ يشي ببعض المكنون، من الحب والاكبار والشجون.

يا صدر يــا نهــج الفــداء ســلامي | يُهــدى اليــك معطّــراً بهيــامي
يا صدر يا وَتَر الفؤاد يصــوغ مــن | نبــع الحــنين ســبائك الانغــامِ
ويــرشّ شــلاّل الشــعور خمــائلاً | جنــّات انــس أُزلفــت لكــرامِ
ما تشتهي نفســي ولـذةُ خـاطري | فيهــا وســر صــبابتي وضِــرامي
يــا صــدر يــا لحــن الهـديل تحيــةً | مشــفوعة بالحــب والاعظــامِ
يا صدر يا سِحْر الاصيل قـد اكتسـت | منــه الربــوع غلائــل الاحــلامِ
يا صدر يا مَـيْس الربيـع لشـاطئ | ســعفاته غنـــت مــع الانســامِ
يا صدر يا ريح الصَّبا تُذكي الهوى | في قلب متْبــول مشــوق ضــامي
يا صدر يا لطف السماء بـه استبا | نــت روعــة الإســلام بـدْرَ تمـامِ
وأبَنْتــها اطروحــة شــهدت لهــا | بالفضــل حــتى لُــمّة الاوغــامِ

***

يا صدر اسـكرتَ القلـوب شمـائلاً | سُكْراً حلالاً ليس سـكر حـرامِ
يا صدر يا همس النـدى في بهجـة | السَّـحَرِ المهيـب لخاشـع مُحتـامِ
يا صدر يا نجـوى حـراء وروحـه | يحيــي النفــوس يقودهــا بزمــامِ
يا صدر طَيْبـة قـد تجـدد صـوتها | في صــوتك العُلْــوي ذي الألهــامِ
يا صدر علمـك قـد تجسـد ثـورةً | وَثَباتهــا فاتــت مــدى الأفهــامِ
في صبرك الصخريَّ هاج تشـوّقي | ولعزمك العمـلاق هـبّ غرامـي
يا أُسوة الابـرار امـرك قـد عَنَـتْ | شــمّ الحلــوم لــه بفــرط هيــامِ
كالصـبح يسـفر ضـاحكاً بسـنائه | يجلــو ســجوف الهــم والآلامِ

ويحطّ عني إصْر أوهامي واغـ ... لال الهبوط ونزوة الايام
ويفيض إلهام السمو وحكمة الـ ... تدبير في عدل من الاحكام

***

لله مدرسة تسنَّمَ عرشَها ... الصدرُ بارئُها فأي عصامي
في عالم التفكير أبدع منهجاً ... وِتْر الشمائل محكم الإبرام
فذًّ الفنون ظريفَها حلوَ المخا ... ئل عذْبها قد حاز خير وسام
ما أروع الابداع في نفحاته ... نبضاته النشوى كؤوس مدام
ولا كرم الافهام زفّ عرائساً ... فكرائم الابداع كُفْءَ كرام
تعطي الحقيقة حظها من كشفها ... تجلو به عنها أذى الاوهام
وفرائد التبيين فتْح بصيرة ... لتكون للمفهوم زهْوِ قِوام
يمنحن اعجاز الهدى ما يشتهي ... من صنعهن الفذ ذي الإحكام
تسري بآفاق العقول لعالَمٍ ... اسمى يناديها ادخلي بسلامِ

***

يا صدر يا أبهى الرؤى في خاطري ... وأرقّ لحن بذّ في أنغامي
سبحان ربّ العرش أي مشاعر ... اولاك ربّ الفضل والإنعام
منها يضوع الطهر مِسْك تنزُّهٍ ... وتفوح رقِتّهُا شميمَ غرام
حاكت حمام الدوح في عشق وفي ... سَجْعٍ وفي آهٍ وفي تَهمام
تسمو بنفسي للذرى في روضة الـ ... انوار والتقديس والالهام
وتذيبني في مصهر الاشواق ثـ ... ـم تصبّني في قالب الاحلام
وتعيدني في لجّة الاسرار بل ... في عالم الذرِّ المهيب السامي

في عالم الميثاق يوم شهدت للـ ـرحمن ذي الاجلال والاكرامِ
ناديته من فطرتي يا خالقي آمنت بالتوحيد والإسلامِ

★★★

يا صدر قد قُدتّ المسيرة رائداً ومضحياً فحفظت عَقْد ذمامِ
اديت للرحمن حق عبادة ولَّيت وجهك شطره بأُوامِ
ومشيت في نهج التبتل هائماً وترى لهيب الوجد خير مَرامِ
مجد الخلوص وسام عمرك زاهياً والنفس لم تخدع بنفْث رَغامِ
ومهابة المعبود فيك توحّدت فالقلب عندك دائب الإحرامِ

★★★

كم حسرةٍ جمرية سامرتَها سمر المتيّم لجّ في التَهيامِ
كم لدغةٍ من افعوان حَسادة كم لسعةٍ من شَبْوة الارحامِ
قاسيتها يا سيدي مسعورة في بُهْتها الأفّاك شِبْه حِمامِ
كم طعنةٍ أخفيتها كي لا ترى سوء الحبيب وبهجة الاقزامِ
وبكيت في صمت وخُفْية حاذرٍ تطوي على ألمٍ كوقْعِ حسامِ
وجزيتهم بالعفو دفعاً بالتي تُنمى لمحْتِد سادة وكرامِ
كم ليلةٍ رابطت فيها رامقاً رهن الخشوع وأقدس الانسامِ
كم دمعةٍ أجريتها مشبوبة لله للضعفاء للإسلامِ
منها توضأت الملائكة الكرا م لعشقها محبورة بوسامِ
صلّت بها لله أشرف فرضها نالت بذاك الفرض خير مقامِ

★★★

يا صدر صدْرُ المجد ضمّك فانتشى ... وهوى الخلـود للثْمَـةِ الاعظـامِ
نقّيـت عشـق الله في نـار الاذى ... كـالتبر لا يصـفو بغـير ضِـرامِ
واذبت روحك في هـواه فـأوترتْ ... مـا أشـفعت يومـاً مـن الأيـامِ
مازلـت تنشـده وكنـت تـراه في ... لجّ العنـــاء ولذْعـــةِ الآلامِ
فوطـأتَ أثبـاج المنايـا طالبـاً ... ذوب الوصـال وذروة الاحـلامِ
أسمـى السـرائر في فـؤادك زيّنـتْ ... تـاج القداسـة في سـناً وسـلامِ
وملائك الاشواق في ثـوب الصـفا ... مـا بـين حِجْـر شـامخ ومقـامِ
طافـت طـواف العاشـقين بكعبـةٍ ... هي قلـب عرفـان وروح غـرامِ
عنـد الحطـيم غـدت تمـدّ نـواظراً ... صـوب الحبيـب بلهفـة وأُوامِ
تصـــبو إلى لـــذاتها في نـــوره ... تستاف عطر القرب في الانسـامِ
وترى بعـين القلـب كُنْـه عشـيقها ... سـراً يـذيب بسـطوة الابهـامِ
فتفجـــرت في صـــعْقة طُوريّـــة ... مـن شـاطئ العرفـان والإقـدامِ
عرجـت شموخـاً بـالجلال وعـزةً ... قعسـاء فـوق الفهـم والإلمـامِ

إن الأستاذ الشهيد الكبير الإمام الصدر فذ لا كالأفذاذ، وعَلَم لا كالأعلام .. إنه الفكر الموسوعي النيّر، والقلب العاطفي الكبير، والوعي النافذ الى أعماق هذه الأمة .. إنه الإخلاص المجسّد لكل المبادئ العظمى، والطهر بأصفى معانيه .. إنه السلسال الصافي يصب نعيمه في قلوب العاشقين .. وفي طليعتهم تلامذته ومحبوه المخلصون.

كثيرون هم الأساتذة المربون، ولكن الذي يتميّز منهم بالنفوذ إلى أعمق الأعماق قليل، ومن هؤلاء القليلين من ينفذ ويبقى شامخاً خالداً في هذه الأعماق، ومن هؤلاء الخالدين من يبقى يشع ويربي دائماً .. والصدر العزيز العزيز في الطليعة النافذة.

كان يعشق حكومة الإسلام بمعناها الأصيل، ومذ رأى الإمام الخميني يصنع هذه المعجزة نسي نفسه ومرجعيته وكل ما يملك، وقدّم الكل فداءً لهذه التجربة العظيمة، فكتب الى تلامذته:

(ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام).

وقد حظيت بصحبته طويلاً إلا انني أشعر إني لم أتم بحضرته رشفة واحدة، ولم أنهل منها شربة كاملة ... رحل ومازالت كل آمالي وأشواقي تبكيه بدل الدموع دماً ... وكل مشاعري تصبّ جام غضبها على قاتليه اللئام.

وهذا الكتاب صورة من عشق تلامذته، وحروف من قلوب عاشقيه، يحاول أن يرسم صورته الملكوتية، وأنّى للقلم أن يرسم صورة الملكوت؟ وأنّى للحروف أن تعبر عن كنه الواقع الكبير، ولكن لنعتبره دعوة لكل أولئك الراغبين في الدخول الى عالم الملكوت والحب، كي يقربوا ويتأملوا هذا النموذج الفذ الفذ.



المجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية
E-mail: taghrib@taghrib.org
ISBN: 964-7994-45-1